ليون تروتسكي

# الثورة والحياة اليوميّة



ترجمة:

ه. عبّودي






دار الطليعة - بيروت

بيروت ـ لبنان
ص . ب ١١١٨١٣
تلفون ٢٥٧١٧٨
٣٠٩٤٧٠

**الطبعة الاولى**
حزيران ( يونيو ) ١٩٧٩

ليون تروتسكي

# الثورة والحياة اليومية

ترجمة:

هـ. عبّودي

دار الطليعة للطباعة والنشر

بيروت

هذه ترجمة كتاب

LES QUESTIONS DU MODE DE VIE
Par

LEON TROTSKY

Union Générale D'Editions
1976

# مقدمة الطبعة الثانية

بالمقارنة مع الطبعة الاولى ، فان الطبعة الثانية هذه موسعة على نحو ملحوظ : فقد اضفت اليها مقالات قديمة متعلقة بقضايا نمط الحياة واخرى حديثة للغاية . واني اعبر هنا عن عميق تقديري للرفاق الذين لبوا ندائي عندما طلبت منهم ان يفيدوني بملاحظاتهم واقتراحاتهم وايضا بالمواد التي بين ايديهم حول موضوع نمط الحياة . هذه المواد لم استخدمها بأكملها . لكن العمل لم ينجز بعد على كل الاحوال . ومن الضروري، لانجازه ، ان يأخذ طابعا جماعيا يتسع نطاقه باطراد .

بعض العقول النيرة تسعى ، على حد اطلاعي ، الى اقامة معارضة بين المهام المتعلقة بتهذيب نمط الحياة وبين المهام الثورية . وعن نظرة كهذه للامور لا يسعنا الا نقول انها تشكل خطأ سياسيا ونظريا فادحا . فقد كتبنا في مقال عن الثقافة البروليتارية (**البرافدا** ، العدد ٢٠٧ ) ما يلي(١) : « مهما كان بناؤنا الثقافي هاما وحيويا ، فهو يظل منضويا بكامله تحت جناح الثورة

---

**(١) المقال المشار اليه هو « الثقافة البروليتارية والفن البروليتاري » ، وقد نشر بالعربية في « الادب والثورة » ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٥ . «م» .**

الاوروبية والعالمية . اننا ما زلنا جنودا في حملة . وامامنا في الوقت الراهن يوم من الراحة ، وينبغي ان نستفيد منه لنغسل قمصاننا ونقص شعورنا ، وقبل كل شيء لننظف البندقية ونشحمها . ان كل نشاطنا الاقتصادي والثقافي الحالي لا يعدو أن يكون ضربا من اعادة تنظيم لمتاعنا بين معركتين ، بين حملتين . والمعارك الفاصلة ما تزال امامنا ، ولم تعد بعيدة جدا في ارجح الظن . والايام التي نعيشها ليست هي بعد عصر ثقافة جديدة . وانما هي في احسن الاحوال المدخل الى ذلك العصر » .

وبقدر ما يتسم عملنا الاقتصادي والثقافي بطابع منهجي وعملي ، بقدر ما نوفق في حل المشكلات الجسام المطروحة علينا . ان الموجة الثانية لن تكون في اي حال تكرارا للاولى ، بل ستقتضي منا ، في سائر المجالات ، تهيئة وتأهيلا ارفع وافضل بكثير . هنا ينبغي ان تدلل الجماهير الكادحة على تفهم اعمق للآفاق المستقبلية البناءة التي لا يمكن لغير الثورة العالمية المظفرة ان تمنحنا اياها كاملة وبكل ابعادها .

٩ ايلول ١٩٢٣

# مقدمة الطبعة الاولى

كي نفهم هذا الكتاب على نحو افضل ،يجب ان نروي قصته بكلمتين . لقد بدت لي مكتبة الحزب مفتقرة الى كراس صغير يوضح للعامل وللفلاح المتوسطين، على نحو شعبي مبسط، العلاقة التي تجمع بين بعض وقائع عصرنا الانتقالي وبعض ظواهره، ويصلح لان يكون ،بتحديده للمنظور الصحيح، سلاحا للتربية الشيوعية. وللتأكد من هذه الفكرة توجهت الى سكرتير لجنة موسكو ، الرفيق زيلنسكي، وطلبت منه ان يعقد اجتماعا لعدد من الدعاة والمحرضين يتم خلاله تبادل وجهات النظر حول الوسائل والطرائق الادبية لدعايتنا .

وقد تجاوز الاجتماع على الفور حدود المشروع الاولي . وقد اثارت المشكلات المتعلقة بالاسرة وبنمط الحياة اهتمام سائر المشتركين وحماستهم . وخلال جلسات ثلاث استغرقت في مجموعها من عشر الى اثنتي عشرة ساعة ، تمكنا ، لا من حل، وانما من استعراض مختلف جوانب الحياة العمالية في مرحلة انتقالية ومن تسليط الاضواء عليها ، وكذلك على وسائل تأثيرنا على نمط الحياة العمالي .

بين الجلستين الاولى والثانية ، وبناء على اقتراح من المجتمعين، وجهت بعض الاسئلة المكتوبة واجاب عليها بعضهم كتابيا ايضا . وثمة اجوبة اخرى كانت حصيلة اجتماعات مصغرة عقدت على مستوى الدوائر البلدية . وقد سجلت محادثاتنا مع محرضي موسكو بالطريقة الاختزالية . وهذه المحاضر والتحقيقات هي التي تشكل اساس الكتاب الذي بين ايدينا . ولا ريب في ان هذه المواد الاولية غير كافية على الاطلاق . وعلاوة على ذلك فقد اضطررنا الى تنقيحها بسرعة : لكن هدفي لم يكن اساسا تسليط الاضواء على مختلف زوايا نمط الحياة العمالي ، وعلى تطوره ، وعلى وسائل التأثير عليه ، وانما طرح قضية نمط الحياة العمالي كموضوع جدير بدراسة جدية ومتأنية .

ان الكتيب الذي نقدمه للقارىء ليس على الاطلاق ذلك الكراس الشعبي الذي كانت فكرته نقطة انطلاق عملنا هذا. وسوف احاول من جديد كتابة ذلك الكراس اذا ما سمحت لي الظروف بذلك . فالمؤلف الذي بين ايدينا موجه في المرتبة الاولى الى اعضاء الحزب ، والى قادة النقابات والتعاونيات والمؤسسات الثقافية.

**ل . تروتسكي**

**٤ تموز ١٩٢٣**

( ١ )

# ليس بالسياسة وحدها يحيا الانسان

هذه الفكرة البسيطة ينبغي ان نفهمها مرة واحدة والى الابد، والا ننساها ابدا في اعلامنا ، الشفهي او المكتوب . لكل عصر اغانيه . وتاريخ حزبنا قبل الثورة كان تاريخ سياسة ثورية. فادب الحزب، وتنظيمات الحزب، وكل ما كان يتعلق بالحزب كان يخضع لشعار « السياسة » بالمعنى الضيق للكلمة ، وقد زادت الثورة والحرب الاهلية من حدة المهام والاهتمامات السياسية . فخلال هذه الفترة جند الحزب في صفوفه اكثر عناصر الطبقة العاملة نشاطا على الصعيد السياسي . مع ذلك ، فان الدروس والاستنتاجات السياسية الجوهرية لهذه السنوات واضحة بالنسبة الى الطبقة العاملة في مجملها .

والتكرار الآلي لهذه الاستنتاجات لن يأتيها بجديد ، وقد يمحو بالعكس دروس الماضي في وعيها . وبعد الاستيلاء على الحكم وبعد تدعيمه في اعقاب الحرب الاهلية ، تحولت مهامنا الاساسية الى ميدان البناء الاقتصادي والثقافي ، فاصبحت اكثر تعقيدا،

ومالت الى ان تكون مجزأة ،واكتسبت طابعا اكثر تفصيلا واكثر « ابتذالا » على ما يبدو . لكن نضالاتنا السابقة ، مع ما واكبها من جهود وتضحيات ، لن تجد تبريرا لها الا بقدر ما نوفق في طرحنا السليم وحلنا للمشكلات الخاصة ، اليومية ، المتعلقة بـ «النضالية الثقافية » .

فماذا ربحت الطبقة العاملة على وجه التحديد، وعلام حصلت خلال نضالاتها السابقة ؟

١ ـ ديكتاتورية البروليتاريا ( بواسطة دولة عمالية وفلاحية يقودها الحزب الشيوعي ) .

٢ ـ الجيش الاحمر ، بصفته ركيزة مادية لديكتاتورية البروليتاريا .

٣ ـ تأميم اهم وسائل الانتاج ، الذي من دونه تكون ديكتاتورية البروليتاريا شكلا فارغا ، بلا مضمون .

٤ ـ احتكار التجارة الخارجية ، وهو شرط ضروري للبناء الاشتراكي في محيط رأسمالي .

هذه العناصر الاربعة ، التي اضحى امتلاكها نهائيا ، تشكل الدرع الفولاذية لعملنا باكمله . وبفضل هذه الدرع ، فان كل نصر نحققه في الميدان الاقتصادي او الثقافي ـ شرط ان يكون نصرا فعليا لا وهميا ـ يتحول بالضرورة الى عنصر تأسيسي للبناء الاشتراكي .

ما هي مهمتنا اليوم ، ماذا يجب ان نتعلم في المرتبة الاولى، والام ينبغي ان ننزع ؟ يجب ان نتعلم ان نعمل جيدا ـ بدقة ، ونظافة واقتصاد . ونحن بحاجة الى تطوير ثقافة العمل ، وثقافة الحياة وثقافة نمط الحياة . لقد اطحنا بهيمنة المستغلين بعد طول استعداد وبفضل عتلة الثورة المسلحة . لكن ليس هنالك عتلة قادرة على النهوض بالثقافة دفعة واحدة . ولا بد هنا من سيرورة طويلة الامد من التربية الذاتية والتثقف للطبقة العاملة وللطبقة الفلاحية . يشير الرفيق لينين في مقال له عن التعاون ، الى

هذا التحول في توجه اهتمامنا وجهودنا ومفاهيمنا ، فيقول :

« ... نحن مضطرون الى التسليم بتحول جذري في نظرتنا للاشتراكية . وينبع هذا التحول الجذري من اضطرارنا في الماضي الى وضع مركز ثقل نشاطنا في الصراع السياسي ، في الثورة ، في الاستيلاء على السلطة ، الخ . وقد تحول اليوم مركز الثقل هذا الى العمل التنظيمي ، السلمي ، « الثقافي ». ولولا العلاقات الدولية وضرورة الدفاع عن وضعنا على الصعيد الدولي لقلت ان مركز الثقل قد انتقل ، بالنسبة الينا ، الى « النضالية الثقافية » . لكن لو وضعنا الامور الدولية جانبا ، وحصرنا انفسنا بالعلاقات الاقتصادية الداخلية ، لوجدنا ان مركز الثقل قد اعيد فعلا الى « النضالية الثقافية » (١) .

وحدها اذن مسألة وضعنا الدولي تحولنا عن النضالية

---

(١) من المفيد التذكير هنا بتعريف « النضالية الثقافية » الذي اوردته في كتابي « اراء عن الحزب » :

« تبدو الثورة ، على صعيد تحقيقها العملي ، وقد « تبعثرت » الى مهام خاصة : فهي مطالبة بترميم الجسور وبتعليم القراءة والكتابة ، وبتخفيض سعر كلفة انتاج الاحذية في المصانع السوفياتية ، وبالنضال ضد القذارة ، وبالقاء القبض على المحتالين ، وبنقل الكهرباء الى الارياف الخ .. بعض المثقفين الاجلاف من ذوي العقول الملتوية ( لهذا السبب يعتبرون انفسهم شعراء وفلاسفة) راحوا يتكلمون عن الثورة بلهجة تنازل عظيم : فالثورة ، كما يقولون ، باتت منشغلة بتعليم الناس فنون البيع ( يا للسخرية ) وخياطة الازرار ( دعونا نضحك ). لكن لندع هؤلاء النمامين يثرثرون في الفراغ . فالقيام بمهمة عملية ويومية في مجال الاقتصاد والثقافة السوفياتيين ـ حتى في مجال التجارة بالمفرق ـ لا يعني ، في حال من الاحوال ، الاهتمام بـ « اشياء صغيرة » ولا يفترض بالضرورة عقلية البخيل الدنيء . فالحياة البشرية مليئة باشياء صغيرة من دون اشياء كبيرة. لكن في التاريخ لا تحصل ابدا اشياء كبيرة من دون اشياء صغيرة . ولمزيد من الوضوح اقول : ان الاشياء الصغيرة في عصر كبير،وفي حال دمجها بعمل كبير، =

الثقافية ، وذلك بصورة جزئية فقط كما سنرى على الفور، فالعامل الاساسي في وضعنا الدولي هو الدفاع الوطني ، اي الجيش الاحمر . والحال ان مهامنا ، في هذا الميدان الاساسي، ترجع مرة اخرى ، بنسبة تسعة اعشار ، الى النضالية الثقافية: رفع سوية الجيش ، القضاء على الامية في صفوفه ، تعليمه كيف يستخدم الادلة والكتب والخرائط ، تعويده على النظافة والدقة والانتظام والملاحظة . وليس هنالك دواء معجزة يسمح بحل هذه المشكلات على الفور . فبعد انتهاء الحرب الاهلية ، وفيما كنا نواجه مرحلة جديدة من نشاطنا ، جاءت محاولة خلق « مذهب

---

= تكف عن ان تكون « اشياء صغيرة » .

« فالمسألة عندنا هي بناء الطبقة العاملة ، وهذه الطبقة تبني ، للمرة الاولى ، من اجل ذاتها ووفقا لخطتها الخاصة . وهذه الخطة التاريخية ، التي ما تزال ملتبسة وغير كاملة ، لا بد ان تحتوي وتضم ، في كل ابداعي واحد ، سائر عناصر النشاط الانساني بما فيها العناصر الاكثر تفاهة .

« ان سائر المهام الصغيرة والمنعزلة ـ حتى التجارة السوفياتية بالمفرق ـ تشكل جزءا لا يتجزأ من الطبقة العاملة السائدة الساعية الى التغلب على ضعفها الاقتصادي والثقافي .

« ان البناء الاشتراكي بناء مخطط واسع النطاق . وعبر المد والجزر ، والاخطاء والتقلبات ، وتعرجات السياسة الاقتصادية الجديدة ، يتابع الحزب خطته ، ويربي الشبيبة وفق روح هذه الخطة ، ويعلم كل فرد كيف يربط بين نشاطه الخاص وبين المهمة العامة التي تقتضي اليوم خياطة الازرار السوفياتية بعناية والتي قد تدعو في الغد الى الموت بشجاعة تحت راية الشيوعية .

« علينا ان نطالب ، وسوف نطالب ، باسم شبيبتنا ، بتخصص عال ومعمق. وسوف يكون على هذه الشبيبة ان تتخلص من العيب الاساسي لجيلنا الذي يدعي معرفة كل شيء والقدرة على القيام باي شيء . لكن هذا التخصص سيكون في خدمة الخطة العامة التي يناقشها كل منا بينه وبين نفسه ويوافق عليها على حدة » .

عسكري بروليتاري » تعبر على نحو واضح وصارخ عن عدم فهم مهام المرحلة الجديدة . والمشاريع الصلفة والمكابرة الهادفة الى خلق « ثقافة بروليتارية » في المختبر تنطلق هي الاخرى من عدم فهم مماثل . وفي هذا المسعى وراء حجر الفلاسفة ، يتحد يأسنا امام تخلفنا بايمان بالعجائب والمعجزات ، وهذا الايمان هو بحد ذاته دليل على هذا التخلف . لكن ليس ثمة مبرر لليأس ، وقد آن الاوان لنتخلص من هذا الايمان بالعجائب والمعجزات ، من هذه الممارسات السحرية الصبيانية ، من نوع « الثقافة البروليتارية» او المذهب العسكري البروليتاري . فمن اجل تدعيم ديكتاتورية البروليتاريا ، لا بد من العمل على تطوير نضالية ثقافية يومية لانها وحدها كفيلةبصيانة المضمون الاشتراكي لمكاسبالثورة الاساسية. ومن لم يدرك ذلك ، يؤد دورا رجعيا في تطور فكر الحزب وعمله.

عندما يؤكد الرفيق لينين ان مهامنا اليوم لم تعد سياسية بقدر ما هي ثقافية ، فانه ينبغي ان نتفق على المصطلحات كي لا نسيء تفسير رأيه . فالسياسة تسيطر على كل شيء بمعنى ما . ونصيحة الرفيق لينين بتحويل اهتمامنا من المجال السياسي الى المجال الثقافي هي نصيحة **سياسية** . فعندما يقرر حزب عمالي، في قطر او في اخر ، انه قد اضحى من الضروري ، في زمن محدد ، وضع المتطلبات الاقتصادية لا السياسية ، في المرتبة الاولى ، فان هذا القرار يتميز بطابع «سياسي» . من الواضح تماما ان كلمة « سياسي » قد استخدمت هنا بمعنيين مختلفين: اولا بالمعنى الواسع ، المادي ـ الجدلي ، المحتوي على مجموعة الافكار المرشدة والمناهج والانظمة التيتوجه نشاط مجموع الشعب في سائر ميادين الحياة الاجتماعية ، ثانيا بالمعنى الضيق، المختص ، المميز لجزء محدد من النشاط الاجتماعي ، المرتبط على نحو وثيق بالكفاح من اجل السلطة والمتعارض مع العملالاقتصادي والثقافي الخ. عندما يكتب الرفيق لينين ان السياسة هي اقتصاد مركز ، فهو يرى الى السياسة من منظور المفهوم الواسع،

الفلسفي . وعندما يقول الرفيق لينين : « قليل من السياسة ومزيد من الاقتصاد » ، فهو ينظر الى السياسة بالمعنى الضيق والمختص للكلمة . ان الاستخدامين مشروعان طالما جرت العادة على ذلك . لكن يبقى ان نفهم تماما اي المعنيين هو المقصود في كلتا الحالتين .

ان التنظيم الشيوعي حزب سياسي بالمعنى الواسع ، والتاريخي ، او اذا اردنا ، بالمعنى الفلسفي للكلمة . اما الاحزاب الحالية الاخرى فهي سياسية فقط بمعنى انها تهتم بالسياسة ( الصغيرة ) . وان يحول حزبنا اهتمامه الى المجال **الثقافي** ، فهذا لا يعني في حال من الاحوال انه يضعف **دوره السياسي** . فالدور القيادي ( وبالتالي السياسي ) للحزب يتجلى تاريخيا على وجه التحديد في هذا التحول المنطقي لاهتمامه الى المجال الثقافي . ولن يتمكن الحزب من التحرر بالتدريج من قوقعته الحزبية للاندماج بالاسرة الاشتراكية الا بعد سنوات طوال من النشاط الاشتراكي المطبق بنجاح في الداخل ، والمضمون في الخارج ، لكن ذلك بعيد جدا بحيث لا جدوى هنا من استباق المستقبل ... اما في الوقت الراهن، فعلى الحزب ان يحافظ اتم المحافظة على ميزاته الاساسية : تلاحم ايديولوجي ، مركزية ، انضباط وبالتلازم ، قتالية . لكن هذه الميزات التي لا تقدر بثمن والتي تميز « الروح الحزبية » الشيوعية لا يمكن ان تثبت وان تنمو في ظل شروط جديدة الا اذا لبيت المطالب والحاجات الاقتصادية والثقافية على نحواكمل، واحذق وادق واكثر تفصيلا . وانسجاما مع هذه المهام المدعوة الى القيام بدور راجح في سياستنا ، فان الحزب يعيد تجميع قواه وتوزيعها ويثقف الجيل الصاعد . بتعبير آخر ، ان السياسة العليا تقتضي بان نعتبر المهام والمقتضيات الاقتصادية الثقافية ، لا المقتضيات « السياسية » بالمعنى الضيق للكلمة ، اساس كل عمل تحريض ودعاية وتوزيع للقوى وتعليم وتثقيف .

★ ★ ★

ان الوحدة الاجتماعية القوية التي تمثلها البروليتاريا تظهر بكل اهميتها في مراحل النضال الثوري المحتدم ، لكن داخل هذه الوحدة نلاحظ تنوعا لا يصدق ، بل تنافرا عظيما . فمن الراعي المغمور والجاهل الى الآلاتي الرفيع الاختصاص تتدرج تشكيلة من المواصفات ، ومن المستويات الثقافية ، ومن انماط الحياة . زد على ذلك ، اخيرا ، ان كل شريحة اجتماعية ، كل ورشة في منشأة ، كل مجموعة ، تتألف من افراد يختلفون في اعمارهم وطبائعهم ، كما يختلفون بماضيهم . ولولا وجود هذا التنوع لكان عمل الحزب الشيوعي في مجال تثقيف البروليتاريا وتوحيدها سهلا للغاية . لكن مثال اوروبا يثبت لنا بالعكس كم هو صعب هذا العمل في الواقع .

ونستطيع ان نقول انه كلما كان تاريخ بلد ، وبالتالي تاريخ الطبقة العاملة نفسها ، غنيا ، كثرت فيه الذكريات والتقاليد والعادات ، وكلما كانت التجمعات الاجتماعية فيه اقدم عهدا، صعب فيه اكثر تحقيق وحدة الطبقة العاملة .ان البروليتاريا عندنا تكاد لا تملك تاريخا ، ولا تقاليد . وهذا ما سهّل دون ادنى ريب اعدادها لثورة اكتوبر . لكن هذا ما يزيد بالمقابل من صعوبة بنائها بعد اكتوبر . فعاملنا ( باستثناء الشريحة العليا ) يجهل حتى ابسط العادات الثقافية واكثرها بدائية ( فهو لا يعرف مثلا النظافة ، ولا الدقة ، ويجهل القراءة والكتابة الخ ). اما العامل الاوروبي فقد اكتسب هذه العادات بالتدريج في اطار النظام البورجوازي : لهذا نراه ـ ولا سيما في الشرائح العليا ـ متعلقا الى حد كبير بهذا النظام ، بديمقراطية وحرية تعبيره ومكاسبه الاخرى التي من هذا القبيل.ان العامل عندنا لم يجن مكسبا يذكر من نظام بورجوازي جاء متأخرا : لهذا السبب استطاعت البروليتاريا في روسيا ان تقطع علاقتها بالبورجوازية وان تطيح بها بسهولة اكبر.لكن لهذا السبب ايضا فان البروليتاريا عندنا ، في غالبيتها ، تجد نفسها مضطرة الى ان تكتسب

اليوم ، اي في اطار حكم اشتراكي عمالي ، ابسط العادات الثقافية . والتاريخ لا يعطي شيئا بالمجان : فان اعطى حسما على شيء،على السياسة مثلا ، عوّضه في مكان آخر ، في الثقافة . وبقدر ما كان تحقيق الثورة سهلا ( نسبيا بالطبع ) بالنسبة الى البروليتاريا الروسية سيكون تحقيق البناء الاشتراكي صعبا . لكن درع مجتمعنا الجديد بالمقابل،الذي قدّته الثورة ، وميّزته العناصر الاساسية الاربعة المشار اليها في مطلع هذا الفصل، يعطي طابعا اشتراكيا موضوعيا لسائر الجهود الواعية والعقلانية التي تبذل في مجالي الاقتصاد والثقافة . فالعامل في النظام البورجوازي يغني البورجوازية من دون ارادته ، بل من دون علمه ، وبقدر ما كان يعمل باتقان ، كان يزيد في غناها. اما في الدولة السوفياتية فان العامل صاحب الوجدان يؤدي عملا اشتراكيا ، حتى دون ان يفكر بذلك او يعيره بالا ( اذا كان غير حزبي ولا مسيسا ) ويزيد من قدرات الطبقة العاملة . هنا على وجه التحديد يكمن معنى ثورة اكتوبر الذي لم تبدل السياسة الاقتصادية الجديدة فيه شيئا .

هنالك اعداد ضخمة من العمال غير الحزبيين ، المخلصين للانتاج ، وللتقنية وللالة . وينبغي ان نتحفظ في كلامنا عن « لا تسيسهم » اي عن عدم اهتمامهم بالسياسة . فقد وقفوا الى جانبنا في اللحظات الحرجة التي مرت بها الثورة . ان ثورة اكتوبر لم تفزعهم ، في غالبيتهم الساحقة ، لذا لم يتخلوا عنها ولم يخونوها . وابان الحرب الاهلية توجه العديد منهم الى الجبهة ، في حين انكب الآخرون على العمل لتجهيز الجيش. يقال عنهم انهم غير مسيسين ، وهذا الحكم لا يطلق جزافا ،لانهم يسبّقون عملهم ومصلحة اسرتهم على المصلحة السياسية ، في المراحل « الهادئة » على الاقل . ان كل واحد من بينهم يود ان يصبح عاملا صالحا ، وان يتقن عمله ، وان يرتفع الى سوية اعلى ليحسن وضع اسرته وليرضي كبرياءه المهنية المشروعة في

في آن واحد . ان كل واحد من بينهم ، كما سبق ان قلنا ، يؤدي عملا اشتراكيا ، وان لم يكن ذلك قصده وهدفه ، لكن ما يهمنا نحن ، اي الحزب الشيوعي ، هو ان يكون لدى هؤلاء العمال ـ المنتجين شعور واضح بالعلاقة بين انتاجهم اليومي الخاص وبين اهداف البناء الاشتراكي باكمله . فمصالح الاشتراكية ستصبح عندئذ مضمونة على نحو افضل ، كما ان الترضية المعنوية التي سيجنيها هؤلاء المنتجون الفرديون من جراء ذلك ستكون اعظم بكثير .

لكن كيف نتوصل الى ذلك ؟ فمن الصعب عقد حوار مع عامل من هذا النمط حول قضايا سياسية خالصة . فقد سبق له ان استمع الى سائر الخطب . وهو لا يشعر باي انجذاب نحو الحزب . وفكره لا يتنبه ويستيقظ الا عندما يكون الى جانب آلته ، وما لا يرضيه في الوقت الحاضر هو النظام القائم في الورشة،وفي المعمل،وفي المجمَّع . ويحاول هؤلاء العمال ان يذهبوا الى ابعد ما امكن في تفكيرهم ، وغالبا ما يكونون متحفظين، ومن صفوفهم يخرج مخترعون عصاميون .لذا يجب الا نحدثهم بامور السياسة ، لان السياسة لن تثير اهتمامهم، للوهلة الاولى على الاقل . بالمقابل نستطيع ان نحدثهم عن الانتاج والتقنية، بل يتوجب علينا ذلك .

لقد اشار الرفيق كولتسوف ( من حي كراسنايا برسنيا )، وهو احد المشاركين في اجتماع محرضي موسكو ،الى النقص الهائل في الموجزات ، والكتب الدراسية ، والمؤلفات المكرسة لاختصاصات تقنية او لمهن خاصة اخرى . فالكتب القديمة نفدت ، وبعضها كان قد اضحى متخلفا على الصعيد التقني . اما على الصعيد السياسي فان تلك الكتب غالبا ما تكون مشبعة بالعقلية الرأسمالية الخسيسة .

اما بالنسبة الى الكتب الجديدة ، فيوجد منها واحد او اثنان على الاكثر ، ومن الصعب الحصول عليها لانها تطبع في

اوقات مختلفة ، ومن قبل دور نشر او هيئات مختلفة، خارج كل خطة عامة . وهي ليست دائما صالحة ومشروعة من الزاوية التقنية : فغالبا ما تكون نظرية واكاديمية اكثر مما ينبغي . اما سياسيا ، فهي خالية من كل طابع مميز بوجه عام لانها لا تعدو كونها في الواقع ترجمة لاعمال اجنبية . اننا بحاجة الى سلسلة من كتب الجيب الجديدة ، كتب لصانع الاقفال السوفياتي ، وللخراط السوفياتي ، وللكهربائي السوفياتي الخ . وينبغي ان تتكيف هذه الكتب مع تقنيتنا واقتصادنا الراهنين ، وان تحسب حسابا لفقرنا ولامكاناتنا الهائلة في آن واحد ،وان تهدف الى ان تطور في صناعتنا اساليب وعادات جديدة اكثر عقلانية . كذلك يفترض فيها ان تبرز ، بهذا القدر او ذاك من الالحاح ، الآفاق الاشتراكية من زاوية ضرورات ومصالح التقنية بالذات ( هنا تأخذ مكانها مسألة توحيد المنتوجات الصناعية ، والكهربة ، والاقتصاد المخطط ) . ففي كتب كهذه لا بد وان تندمج الافكار والاستنتاجات الاشتراكية بالنظرية العملية لكل قطاع من قطاعات العمل . اذ لا يجوز ، في حال من الاحوال، ان تكون مجرد تحريض سطحي وغير مؤات . وفيما يتعلق بهذه المؤلفات فان الطلب عليها ضخم . وينجم هذا الطلب عن الحاجة الى عمال مختصين من جهة والى الرغبة ، لدى العمال انفسهم ، في رفع مستوى تأهيلهم من جهة اخرى . ومما يزيد في شدة هذا الطلب التدني في الانتاجية الذي تم تسجيله خلال الحربين الاهلية والامبريالية . نحن هنا امام مهمة في غاية الاهمية والمنفعة .

يجب الا نتجاهل طبعا كم هي صعبة كتابة مثل هذه الموجزات . فالعمال يعجزون عن تأليف الكتب حتى ولو كانوا من ذوي الاختصاص الرفيع . والكتاب المختصون الذين يتعرضون لبعض القضايا ، غالبا ما يجهلون جانبها العملي . ونادرا ما نجد بينهم اناسا يتمتعون بفكر اشتراكي . والواقع ان هذه

المشكلـة تفترض حـلا مركبا لا « بسيطا » اي روتينيا . فلكتابة موجز ينبغي جمع هيئة من ثلاثة اشخاص ( ترويكا ) تتألف مـن كاتب مختص ، مطلع على الصعيـد التقني ، لـه المام ــ او قدرة على الالمام ــ بالوضع السائد في الفرع الانتاجـي الذي سيتناوله الموجـز ، ومن عامل رفيـع الاختصاص في هذا الفرع ، ويتمتع بعقل مبدع ، واخيرا من كاتب ماركسي ، من سياسي لديه بعض المعلومـات في شؤون التقنيـة والانتاج . وسواء الجأنـا الى هذا الحل ام الى حلول مشابهة ، يبقى انـه مـن الضرورة القصـوى العمل على ايجـاد مكتبة نموذجيـة من المؤلفات التقنيـة برسـم ورشات العمل ، تكـون حسنة الطباعـة والتغليف ، مناسبـة الحجم وقليلة الكلفـة . ان مكتبة كهـذه مؤهلة لان تؤدي دورا مزدوجـا : فهي من جهـة ستسهم في رفع سوية العمل وبالتالي فـي انجاح تجربة البناء الاشتراكي . وستساعد ، مـن جهـة اخرى ، على ربط مجموعة من العمال ــ المنتجين الرفيعي الاهميـة بالاقتصاد السوفياتي ككل ، وبالتالي بالحزب الشيوعي .

صحيح اننـا لن نكتفي بسلسلة مـن الكتب الدراسيـة الموجـزة ، لكـن ان كنـا قـد توقفنـا بمثل هذا التفصيل عند هذه المسألة الخاصة ، فذلـك لانهـا تعطينا ، حسب اعتقادنا ، مثالا واضحـا بمـا فيه الكفايـة على التناول الجديد الذي تمليه مشكلات المرحلـة الراهنـة . فالنضال من اجـل كسب الولاء الايديولوجي للبروليتاريين « غير المسيسين » قابل لان يخاض، ويجب ان يخاض بوسائل مختلفة . يجب اصدار مجلات اسبوعية وشهريـة ، علميـة وتقنية ومختصة بكل قطاع من قطاعات الانتاج . وينبغي كذلـك انشاء جمعيـات علميـة وتقنيـة موجهة لهؤلاء العمـال . والى هؤلاء العمال يجب ان تنحاز نصف صحافتنا المهنية على الاقـل ، هذا ان كانت هذه الصحافـة لا ترغب في ان تكون موجهـة للنقابيين فقط . لكـن تبقى نجاحاتنا العمليـة في الميدان الصناعي ، وتنظيمنـا الفعلي للعمل في المصنع او الورشة ، وكل

جهد يبذله الحزب بعد تفكير في هذا الاتجاه ، الحجة السياسية الاكثر قدرة على اقناع العمال « غير المسيسين ».

نستطيع ان نصوغ على النحو التالي وجهة النظرالسياسية للعامل المنتج الذي هو محط اهتمامنا هنا ، والذي نادرا ما يعبر عن افكاره : «فيما يتعلق بالثورة وبالاطاحة بالبورجوازية ليس لنا اي راي مخالف : لقد كان عملا محقا . ونحن بغنى عن البورجوازية . وبغنى ايضا عن ممثليها المناشفة وغير المناشفة . وفيما يتعلق بـ « حرية الصحافة » ، فالامر ليس بالغ الاهمية ، ذلك ان المشكلة الاساسية ليست هنا . لكن كيف ستحلون مشكلة الاقتصاد ؟ فقد اخذتم ، انتم الشيوعيين ، قيادة الامور بين ايديكم . واهدافكم وخططكم صحيحة وسليمة ــ نحن نعلم ذلك ، وليس ثمة فائدة من التكرار ، فلقد سمعنا ، ووافقنا وايدنا ــ لكن كيف ستحلون عمليا هذه المشكلات ؟ هذا ما يهمنا على وجه التحديد . حتى الآن حصل اكثر من مرة ان حشرتم اصبعكم حيث لا يجب ، هذا ما لم يعد خافيا على احد . ونحن نعلم ان الصواب في العمل لا يتحقق دفعة واحدة ، وانه لا بد من تعلم ذلك ، وان الوقوع في الاخطاء امر لا مفر منه . هكذا هي الامور دوما . وما دمنا قد استطعنا تحمل جرائم البورجوازية فكيف لا نتحمل اخطاء الثورة ؟ بيد ان ذلك لن يدوم الى ابد الآبدين . ففي صفوفكم ، انتم ايضا ايها الشيوعيون ، يوجد اناس مختلفون شأننا ايضا نحن الخطاة المساكين : فبعضهم يدرس جديا ويؤدي عمله وجدانيا ويحاول الوصول الى نتيجة اقتصادية عملية ، بينمايكتفي بعضهم الآخر بالمخادعة الكلامية . وهؤلاء المخادعون مضرون للغاية ، لان العمل يضيع من بين اصابعهم .. » . والعامل المنتج ، الذي هو محط اهتمامنا ، قد يكون خراطا ، او حدادا ، او سباكا ، نشيطا ، وماهرا ومهتما بعمله . انه ليس متحمسا سياسيا ، بل انه على العكس سلبي ، بيد انه يفكر ، وعقله نقدي . وقد يراوده

الشك احيانا ، غير انه يبقى دوما مخلصا لطبقته . انه بروليتاري جيد . والحزب مطالب بتوجيه جهوده نحو هذا النمط من العمال . فدرجة تأصلنا في هذه الشريحة الاجتماعية ـ في الاقتصاد ، والانتاج والتقنية ـ ستكون اضمن مؤشر لنجاحاتنا في مجال النضالية الثقافية ، بمعناها الواسع، اي بالمعنى اللينيني للكلمة .

ان توجيهنا لاهتماماتنا نحو العامل الوجداني لا يتعارض على الاطلاق ، طبعا ، مع المهمة الاساسية الاخرى لحزبنا : مهمة تأطير الجيل الصاعد من البروليتاريا ، لان هذا الجيل الصاعد ينمو في شروط محددة ، فهو يتكون ، ويشتد ساعده، ويخشوشن عن طريق حله مشكلات محددة . وينبغي من الجيل الصاعد ان يكون ، قبل اي شيء آخر ، جيل عمال وجدانيين : رفيعي التأهيل ، محبين للعمل . جيل يعي ويدرك ان انتاجه يخدم في الوقت نفسه قضية الاشتراكية . ولا شك في ان اهتمام الشبان بالتدريب المهني ورغبتهم في الحصول على ارفع تأهيل سيرفعان في نظرهم من مكانة العمال « الشيوخ » الذين بقوا في غالبيتهم خارج الحزب كما سبق أن ذكرنا . لذا، والى جانب اهتمامنا بالعامل الوجداني والماهر ، ينبغي ايضا ان نجهد في الوقت نفسه لتثقيف الشبيبة البروليتارية ولتنشئتها على نحو سليم . والا استحال علينا المضي قدما باتجاه الاشتراكية .

( ٢ )

# الصحيفة وقارئها

ان ازدياد عدد اعضاء الحزب وتعاظم تأثيره على اللاحزبيين من جهة ، ومرحلة الثورة الجديدة التي ننبري لها اليوم من جهة اخرى ، يفسران اصطدام الحزب بمشكلات جديدة ، وكذلك بمشكلات قديمة عادت للظهور بشكل جديد ، حتى في ميدان التحريض والدعاية . لذا يتوجب علينا ان نعيد النظر ، بدقة وامعان ، في وسائل واساليب دعايتنا . هل هي كافية **من حيث الحجم** ، اي هل تشمل سائر المشكلات التي هي بحاجة الى التوضيح ؟ وهل اهتدت الى **التعبير** المناسب ، السهل المنال بالنسبة الى القارىء والقادر على جذب اهتمامه ؟

هذه المشكلة ، مع غيرها من المشكلات ، كانت موضوع دراسة خمسة وعشرين محرضا وداعية موسكوفيا عقدوا اجتماعا لهذا الغرض . وقد سجلت وجهات نظرهم وآراؤهم وملاحظاتهم باسلوب الاختزال. وآمل ان اتمكن قريبا من نشر كل هذه المواد . ان رفاقنا الصحفيين سيجدون فيها عددا كبيرا

من المآخذ المريرة ، لكن لا يسعني الا ان اعترف بان غالبية هذه المآخذ مبررة في نظري . ان مسألة تنظيم تحريضنا المكتوب، تحريضنا الصحفي في المرتبة الاولى ، هي اهم واخطر من ان نلزم الصمت بصدد اي جانب من جوانبها . بل يجب ان نتكلم بصراحة .

هنالك مثل يقول :« ان البزة العسكرية هي التي تصنع الجنرال ».ينبغي اذن ان نبدأ بالتقنية الصحفية. انها اليوم افضل بكثير مما كانت عليه خلال عامي ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ ، غير انها مع ذلك ما تزال تشكو من نواقص عديدة. فبسبب قلة الاهتمام بالاخراج، والشطط في التحبير ، يعاني القارىء المثقف من صعوبات في مطالعة الصحيفة ، فكم بالاحرى القارىء غير المثقف . والصحف الواسعة التوزيع ، والموجهة للجماهير العمالية العريضة ، مثل « عامل موسكو » او « الجريدة العمالية » ، تشكو من سوء رهيب في الطباعة . والتباين عظيم بين نسخة واخرى : فقد تكون الصحيفة باكملها مقروءة احيانا ، وقد يكون نصفها غير مقروء احيانا اخرى . لذا اصبح شراء جريدة كشراء ورقة يانصيب . ها انا اسحب ، دون تمييز ، نسخة من العدد الاخير من « الجريدة العمالية » . والقي نظرة على « ركن الاطفال » : « قصة الهر الذكي ... » . مستحيل قراءة ما جاء في هذه القصة لشدة سوء الطباعة ، والركن موجه للاطفال ! يجب ان نعترف بصراحة : ان تقنيتنا في ميدان الصحف هي عارنا . فعلى الرغم من فقرنا ، وعلى الرغم من حاجتنا الماسة الى التعلم ، نسمح لانفسنا بترف تلويث ربع صفحة من الجريدة ان لم نقل نصفها . ان « خرقة » كهذه لا تفلح الا في اثارة غيظ القارىء . ان القارىء غير المطلع يمل منها بسرعة ، اما القارىء المثقف والمتطلب فهو يصرف على اسنانه غيظا ، ويحتقر صراحة من يسخر منه على هذا النحو . فهنالك طبعا من يكتب هذه المقالات ، ومن يخرجها ، ومن يطبعها ، لكن على الرغم من هذه الجهود كلها لا يستطيع القارىء في نهاية المطاف

ان يفك نصف الفاز المقال الواحد . هذا عار ومهانة ! وخلال مؤتمر الحزب الاخير حظيت مشكلة الطباعة باهتمام خاص . لكن السؤال ما يزال مطروحا : الامَ سنظل نتحمل ذلك ؟

« البزة العسكرية هي التي تصنع الجنرال » ... لقد رأينا كيف يمكن ان تحول الطباعة السيئة احيانا دون فهم روح المقال. لكن يبقى ان نهتم ايضا بتوفير المواد ، وبالاخراج وبالتصحيح. لانه يشكو من نواقص فاضحة عندنا . فليس من النادر ان نلاحظ اخطاء مطبعية فادحة ، لا في الصحف اليومية فحسب ، وانما ايضا في المجلات العلمية ، وبخاصة في مجلة « تحت راية الماركسية ». لقد قال ليون تولستوي ذات يوم ان الكتب هي وسيلة لنشر الجهل . ولا ريب في ان هذا التأكيد ، الصادر عن نبيل متعجرف ، كاذب مئة بالمئة . غير انه مع الاسف قد يجد تبريرا جزئيا له ... فيما لو نظرنا اليه من زاوية التصحيح في صحافتنا : وهذا ايضا ما عاد يحتمل ! فاذا كانت المطابع تفتقر الى الاطر اللازمة، الى المصححين ـ المراجعين المثقفين والملمين بعملهم، فينبغي تحسين الكوادر المتوفرة حاليا في هذه المطابع . وذلك باعطائها دروسا في تقنية الطباعة واخرى في السياسة . فالمصحح ملزم بفهم النص الذي يصححه ، والا لما اعتبر مصححا ، بل مروجا للجهل رغما عنه ، والمطلوب ان تكون الصحافة اداة تثقيف شاء تولستوي ام ابى .

والان لنتأمل عن كثب مضمون الصحيفة .

ان الصحيفة هي قبل اي شيء اخر وسيلة ربط بين الافراد، فهي تطلعهم عما يجري واين . وروح الجريدة تكمن في الاخبار الحديثة ، والوافرة والمثيرة للاهتمام . وقد بات التلغراف والراديو يلعبان في ايامنا دورا هاما للغاية في الاعلام الصحفي. لذا فان القارىء المعتاد على صحيفة محددة، وعلى مطالعتها الدائبة، يسارع دوما الى مطالعة زاوية « الانباء البرقية » . لكن كي تحتل

البرقيات المكانة الاولى في صحيفة سوفياتية ، يجب ان تأتي باخبار هامة ومثيرة ، وان تقدمها بشكل مفهوم من قبل جماهير القراء . والحال اننا لا نجد شيئا من هذا القبيل . فالانباء البرقية في صحفنا تصاغ وتطبع على طريقة الصحافة البورجوازية « الكبرى » . ولو تتبعنا يوميا انباء بعض الصحف ، لشعرنا بان الرفاق الذين يهتمون بهذه الزاوية يتصرفون كمن نسي ما نشر بالامس عندما يحملون برقياتهم الى الاخراج . فليس ثمة استمرار منطقي في عملهم . فكل برقية تبدو وكأنها شظية سقطت هنا بالصدفة . اما الشروح المتعلقة بها فهي مجانية ، وسطحية في معظم الاحيان . وفي افضل الاحوال ، قد يكتب محرر الزاوية الى جانب اسم سياسي بورجوازي اجنبي كلمة «ليب» ، او «محـا» بين مزدوجين . والمقصود بها : ليبرالي ، ومحافظ . لكن بما ان ثلاثة ارباع القراء لا يفهمون هذين الاختصارين ، فان توضيحات المحرر لا تزيدهم الا تشويشا . ان البرقيات التي تطلعنا عما يجري في بلغاريا او رومانيا تأتي عادة عن طريق فيينا ، برلين ووارسو . ان اسماء هذه المدن التي يشار اليها في مطلع البرقية تضلل نهائيا جماهير القراء الذين لا يفقهون شيئا في الجغرافيا . ولماذا تراني آتي بذكر هذه التفاصيل ؟ للسبب نفسه في الواقع : فهي تبين ، اكثر من اي شيء اخر ، كيف اننا لا نعير بالا لوضع القارىء المحدود الاطلاع ، لحاجاته ، لمتاعبه ومشكلاته عندما ننكب على اعداد صحفنا . **فصياغة البرقيات لصحيفة عمالية عمل من اصعب ما يكون ، عمل يقتضي اكبر قدر من المسؤولية** . هذه الصياغة تتطلب عملا يقظا ودقيقا . فلا بد اولا من امعان التفكير في الجوانب الهامة في النبأ البرقي ، ولا بد ثانيا من اعطائه شكلا يتناسب على نحو مباشر مع مستوى معرفة جماهير القراء . كذلك يجب العمل على اعادة تجميع البرقيات قبل التقديم لها بالشروح اللازمة . اذ ما الفائدة من عنوان ضخم يقع في سطرين او ثلاثة او اكثر ان كان لا يعدو كونه تكرارا لما جاء في البلاغ ؟ وغالبا ما

تنحصر فائدة هذه العناوين في التشويش على القارىء . فكثيرا ما يشار الى اضراب غير ذي اهمية بعنوان مثير : « لقد دقت الساعة » ، او « قريبا الحل » ، في حين ان البرقية بحد ذاتها تكون قد اكتفت بالاشارة من بعيد الى تحرك مبهم لعمال سكك الحديد ، دون ان تأتي بذكر اسباب هذا التحرك او اهدافه . وفي اليوم التالي لا يشار الى هذا الحدث ولو بكلمة واحدة . وكذلك في اليوم الذي يليه . لذا عندما يطالع القارىء من جديد برقية عنوانها « لقد دقت الساعة ! » ، فانه سيعتبر نفسه امام عمل غير جدي ، امام اثارة صحفية رخيصة ، واهتمامه بالبرقيات ، بل بالصحيفة باكملها سيتضاءل بطبيعة الحال، في حين لو تذكر محرر زاوية البرقيات ما نشره بالامس وما قبل الامس ، ولو حاول ان يفهم هو اولا ما يربط بين الاحداث والوقائع كي يشرحها للقارىء، لاكتسب الاعلام على الفور ، على ما تشوبه من نواقص ، اهمية تثقيفية كبرى . فالمعلومات الصحيحة تنتظم شيئا فشيئا في ذهن القارىء ويسهل عليه بالتدريج فهم الوقائع الجديدة ، كما انه يتعلم كيف يبحث في صحيفته عن المعلومات الهامة واين يجدها. وهكذا يخطو القارىء خطوة جبارة على طريق الثقافة . والمطلوب من هيئات التحرير تركيز جهودها على الاعلام البرقي كي تتمكن من صياغة هذه الزاوية على النحو المنشود . فان لم تمارس الصحف الضغوط بهذا الاتجاه وتضرب المثال بهذا الصدد ، فلن نقوى على تعليم مراسلي وكالة « روستا » (١) وتثقيفهم ولو بالتدريج .

ان فهم الاخبار الخارجية يستحيل ان لم تتوفر بعض المعلومات الجغرافية الاولية . والخرائط الغامضة التي تنشرها الصحف احيانا تعجز ، حتى ولو كانت مقروءة ، عن تقديم مساعدة ملموسة للقارىء الذي يجهل ترتيب مختلف اقطار العالم وتوزيع

---

(١) روستا : وكالة برقية روسية ، اصبحت فيما بعد وكالة «تاس» . «م» .

مختلف الدول . والحال ان مسألة الخرائط الجغرافية تشكل في وضعنا الخاص ، اي بالنظر الى محيطنا الرأسمالي والى صعود الثورة العالمية ، قضية هامة من قضايا الثقافة الاجتماعية. فحيثما تنظم المؤتمرات والمهرجانات ، او على الاقل في قاعات المؤتمرات والاجتماعات الكبرى ، يجب ان تتوفر خرائط جغرافية خاصة، تبرز فيها بوضوح الحدود الفاصلة بين الدول ، ويشار فيها الى بعض عناصر التطور الاقتصادي والسياسي لهذه الدول . وقد يكون من المفيد تعليق هذا النوع من الخرائط البيانية في بعض الشوارع والساحات ، اسوة بما كنا نفعله ابان الحرب الاهلية . ووسائل تحقيق مثل هذا العمل متوفرة ، ولا بد . ففي العام الماضي نصبنا كمية غير معقولة من اللافتات ولأتفه الاسباب . افلم يكن من الافضل ان نسخر هذه الوسائل لتزويد المصانع والمعامل ، والقرى فيما بعد ، بخرائط جغرافية ؟ ان كل محاضر، كل خطيب ، كل محرض ، الخ ، يأتي بذكر انكلترا ومستعمراتها مثلا ، كان سيستطيع تحديدها على الفور على الخريطة . كان سيشير ، بالطريقة نفسها ، الى موقع الرور مثلا . والخطيب هو الذي سيكون المستفيد الاول : فمعرفته بموضوعه ستكون اوضح وادق لانه سيضطر الى الاستفسار مسبقا عن موقع بلد من البلدان او دولة من الدول . اما المستمعون فان كان موضوع المحاضرة يهمهم فانهم سيتذكرون ، ولا بد ، ما عرض عليهم من خرائط ، ان لم يكن من المرة الاولى ، فلنقل في المرة الخامسة او العاشرة. وعندئذ ، اي عندما تكف كلمات « الرور » و « لندن » و «الهند» عن ان تكون فارغة من كل معنى ، فان القارىء سيطالع البرقيات على نحو مختلف تماما . عندئذ سوف يجد متعة في مطالعة كلمة « الهند » في الصحيفة ، بعد ان يكون قد بات يعلم اين يقع هذا البلد . وسوف يصبح اكثر ثقة بنفسه ، واكثر قدرة على هضم البرقيات والمقالات السياسية . سوف يشعر بأنه اكثر ثقافة، فيصبح هكذا فعلا . الخرائط الجغرافية الواضحة والبينة هي اذن

عنصر اساسي من عناصر الثقافة السياسية للجميع . والمطلوب ان تهتم مؤسسة « غوسيزدات » (٢) جديا بتوفيرها .

لكن لنعد الى الصحيفة . الاخطاء التي اشرنا اليها بالنسبة الى « اخبار الخارج » نجدها ايضا في اخبار « البلد » ، ولا سيما المتعلق منها بنشاط المنشآت والتعاونيات السوفياتية ، الخ. فهذا الموقف من القارىء ، الرقيع والمتهاون ، نلمسه في معظم الاحيان من خلال « اشياء صغيرة » تكفي لافساد الكل . فالمنشآت السوفياتية يشار اليها بتعابير مختصرة ، واحيانا بالاحرف الاولى فقط من اسمها . وهذا الاختصار يسمح بتوفير الوقت والورق ضمن اطار المنشأة نفسها او ضمن اطار المنشآت المجاورة . غير ان جماهير القراء الواسعة لا تستطيع ان تفهم ما المقصود بهذه الاختصارات الاصطلاحية . وقد اعتاد صحفيونا وكتبة التعليقات والتحقيقات على اداء العاب بهلوانية مع كمية لا تحصى من هذه المصطلحات المختصرة ، تماما كما يفعل المهرجون مع كرياتهم . فقد ينقلون مثلا تفاصيل مناقشة دارت مع الرفيق فلان ، رئيس « م. ا. ب » ولا يترددون فياستخدام هذا الاسم المختصر عشرات المرات خلال المقال . لكن ان لم يكن القارىء بيروقراطيا سوفياتيا مطلعا ، عجز عن ان يدرك ان هذه الاحرف تشير الى « مكتب الادارة البلدية » (٣) . ولما كان من المستحيل على جماهير القراء فك لغز هذا الرمز ، فانها ستعزف عن مطالعة المقال ، وربما عن مطالعة الصحيفة برمتها . يجب ان يفهم صحفيونا ان استخدام الاختصارات والرموز غير جائز الا في الحالات التي تكون فيها مفهومه للحال ، لكن ان كانت لا تفيد الا في تشويش العقول والاذهان ، فعندئذ يصبح استخدامها اجراما وغباء .

ان المهمة الاولى للصحيفة ، كما سبقت الاشارة الى ذلك،

---

(٢) غوسيزدات : دار نشر الدولة . ((م)) .

(٣) في الروسية O.K.X.

هي الاعلام الصحيح . ولن تصبح الصحيفة اداة تثقيف ان لم يكن الاعلام فيها جيدا ، مثيرا للاهتمام ، معروضا بنباهة وذكاء. فالحدث فيها لا بد ان يعرض بوضوح وذكاء قبل اي شيء اخر: يجب تحديد مكان الحدث ، ومضمونه وكيفية حصوله . ففالبا ما نميل الى الاعتقاد بان الاحداث والوقائع بحد ذاتها ليست غريبة عن القارىء ، او انه يفهمها بالاشارة والتلميح ، وقد نعتقد ايضا بانها غير ذات اهمية ، وبان هدف الصحيفة هو الانطلاق من « معرض الحديث » عن واقعة ما ( واقعة يجهلها القارىء ولا يفقه منها شيئا) لحشو دماغه بجملة من الشعارات التثقيفية المجوجة. وهذا كثيرا ما يحدث لان كاتب المقالة او الزاوية لا يعرف دوما عما يتكلم ، ولنكن صريحين ، لانه كسول ، بل واكسل من ان يستعلم، ويقرأ ، ويتناول الهاتف ، ويتحقق من صحة معلوماته . هكذا نراه يتحاشى لب الموضوع ويروي « في معرض حديثه » عن واقعة ما ان البورجوازية هي البورجوازية ، وان البروليتاريا هي البروليتاريا . ايها الزملاء الصحافيون الاعزاء ، ان القارىء يرجوكم الا تلقوا عليه دروسا ، الا تعظوه ، الا تنهالوا عليه باللوم والتقريع، الا تهاجموه ، بل ان ترووا له ، ان تعرضوا له ، ان تشرحوا له بوضوح وعلى نحو مفهوم ما حدث ، واين ، وكيف . اما الدروس والنصائح فانها ستأتي من تلقاء نفسها .

على الكاتب ، ولا سيما الصحفي ، الا ينطلق من وجهة نظره هو ، وانما من وجهة نظر القارىء . وهذا تمييز بالغ الاهمية ينعكس في بنيان كل مقالة على حدة ، وفي بنيان الجريدة ككل. ففي الحالة الاولى ينحصر عمل الكاتب (الاخرق وغير المدرك لاهمية عمله ) في تقديمه للقارىء شخصيته الخاصة ، ووجهات نظره الخاصة ، وافكاره الخاصة ، بل ، في معظم الاحيان ، عباراته الخاصة ايضا . اما في الحالة الاخرى ، فان الكاتب الذي ينظر نظرة صحيحة الى مهمته ، يدفع قارئه الى ان يستخلص بنفسه الاستنتاجات الضرورية ، وذلك باستخدامه تجربة الجماهير

اليومية . وتوضيحا لهذه الفكرة لنأخذ مثالا دار عنه النقاش خلال اجتماع محرضي موسكو . لقد انتشر وباء البرداء عندنا هذا العام كما نعلم جميعا . فلئن تكن الاوبئة القديمة ـ التيفوس، الكوليرا، الخ ـ قد تراجعت بوضوح في الآونة الاخيرة ، ( حتى اصبحت نسبتها دون ما كانت عليه قبل الحرب ) ، فان البرداء بالمقابل قد انتشرت بنسب رهيبة . وباتت تضرب في المدن والقرى والمصانع ، الخ . ان الظهور الفجائي لهذا الداء ، مده وجزره، دورية هجماته ( انتظامها ) امور تجعل البرداء لا تؤثر على الصحة فحسب ، وانما ايضا على الخيال . فالناس يتكلمون عنها ، وتحتل نقطة المركز في تفكيرهم ، لذا فهي توفر تربة مناسبة للخرافات وللدعاية العلمية في آن واحد . لكن صحافتنا لا تهتم بها على النحو المطلوب . مع ان كل مقال يعالج البرداء يثير اعظم الاهتمام ، كما اكد لنا ذلك رفاق من موسكو .

ان عدد الجريدة يمر من يد الى يد، والمقال يقرا بصوت عال. ومن الواضح تماما ان صحافتنا مدعوة الى الشروع بعمل هام حول هذا الموضوع ، دون ان تحد نفسها طبعا بالدعاية الصحية لمفوضية الصحة العامة . يجب البدء بوصف مراحل تطور الوباء ، وتحديد مكان انتشاره ، وتعداد المصانع والمعامل التي يبطش فيها . هذا وحده يكفي لخلق علاقة حية مع اكثر الناس تخلفا ، اذ يشعرهم باننا نعرفهم ، ونهتم بهم ، ولا ننساهم . وبعد ذلك يجب شرح داء البرداء من وجهة نظر علمية واجتماعية ، واعتماد عشرات الامثلة في بيان كيفية نموه وانتشاره في شروط حياتية وانتاجية خاصة، وابراز الاجراءات التياتخذتها الهيئات الحكومية، وتعميم النصائح الضرورية وتكرارها بالحاح من عدد الى اخر ، الخ . انه في مقدورنا ومن واجبنا ان ننمي في هذا المجال الدعاية ضد الافكار المسبقة الدينية . فاذا كانت الاوبئة ، شأن سائر الامراض بصورة عامة ، عقابا على الخطايا المرتكبة ، فلماذا تنتشر البرداء اذن في المناطق الرطبة اكثر مما تنتشر في المناطق الجافة ؟ ان خريطة

لانتشار البرداء ، مرفقة بالشروح العملية اللازمة ، هي وسيلة رائعة للدعاية المناهضة للآراء الدينية . ومما يزيد من اهمية تأثيرها ان مجموعات واسعة من العمال تجد نفسها معنية الى ابعد الحدود بمشكلة الوباء .

لا يحق لصحيفة الا تهتم بما يهتم به الجمهور، وعامة العمال. صحيح ان لكل صحيفة حقها وواجبها في اعطاء تفسيرها الخاص للاحداث ، بحكم من انها مدعوة الى تهذيب وتطوير ورفع السوية الثقافية . غير انها لن تبلغ هذا الهدف ما لم تعتمد على الاحداث والافكار التي تثير اهتمام جمهور القراء .

فمما لا يشك فيه ان الدعاوى القضائية وما يسمى ب « الاخبار المنوعة » : مآسي ، انتحارات ، جرائم ، فواجع عاطفية ، الخ ، تثير ، الى ابعد الحدود ، اهتمام فئات الشعب الواسعة . وذلك لسبب بسيط : فهي امثلة ساطعة على الحياة التي نعيش . ومع ذلك ، فان صحافتنا بصورة عامة لا تولي اهمية تذكر لهذه الاخبار ، وتكتفي منها في افضل الاحوال ببعض السطور المطبوعة باحرف صغيرة . النتيجة : توجه الجماهير الى مصادر غير مختصة للحصول على معلومات ، غالبا ما يساء تفسيرها . فمأساة عائلية ، او حاثة انتحار ، او جريمة ، او حكم قاس ، امور اثارت وستثير المخيلات دوما . فقد طغت مثلا «دعوى توماروف» لفترة من الزمن على « قضية كورزون» (٤) كما يقول الرفيقان لاغوتين وكازانكي من معمل التبغ « النجم الاحمر». على صحافتنا اذن ان تبدي اشد الاهتمام بالاخبار المنوعة : يجب

---

(٤) « قضية كورزون » ـ ج. ن. كورزون (١٨٥٩ ـ ١٩٢٥ ) ديبلوماسي بريطاني كان واحدا من منظمي عملية التدخل ضد الاتحاد السوفياتي ، في عام ١٩١٩ بعث بمذكرة الى الحكومة السوفياتية امرها فيها بايقاف تقدم قوات الجيش الاحمر عند خط اطلق عليه اسم « خط كورزون » . وفي عام ١٩٢٣ ارسل انذارا استفزازيا الى الحكومة السوفياتية هددها فيه بتدخل عسكري جديد . «م».

ان تعرضها ، وتعلق عليها ، وتوضحها . ومن المفروض ان تقدم شرحا يأخذ بعين الاعتبار السيكولوجيا، والوضع الاجتماعي، ونمط الحياة في آن واحد . ان العشرات والمئات من المقالات، التي تتكرر فيها عبارات ممجوجة عن تبرجز البورجوازية وعن غباء البورجوازية الصغيرة ، لن تؤثر في القارىء اكثر من رذاذ خريفي مزعج . بالمقابل ، فان دعوى حول مأساة عائلية ، اذا ما رويت بذكاء، وتوبعت في سلسلة من المقالات ، تستطيع ان تثير اهتمام الآلاف من القراء ، وان توقظ مشاعر وافكارا جديدة لديهم ، وان تكشف لهم عن افق اوسع وارحب . وقد تحث مثل هذه المقالات بعض القراء على المطالبة بدراسة شاملة لموضوع الاسرة . ان صحافة الاثارة البورجوازية تجني فائدة كبرى من الجرائم وحوادث التسميم ، وذلك بمراهنتها على الفضول المنحرف وعلى احط الغرائز عند الانسان . لكن هذا لا يعني انه من واجبنا نحن ان ندير ظهرنا للفضول ولغرائز الانسان عامة . فموقف كهذا هو ضرب من المراوغة ، هو الرياء بام عينه . فنحن حزب الجماهير ، ونحن دولة ثورية ، ولسنا رهبانية او ديرا . وعلى صحفنا الا تلبي فقط الفضول الانبل وانما ايضا الفضول الطبيعي . شرط فقط انترفع من مستواه وتحسنه بتقديمها الاحداث وشرحها على نحو ملائم . ان المقالات والزوايا من هذا النوع تحظى دوما وفي كل مكان بنجاح كبير . والحال انه نادرا جدا ما تطالعنا بها الصحافة السوفياتية . قد يصار الى الرد على ذلك باننا نفتقر الى الادباء المختصين في مثل هذا الموضوع . وهذا صحيح ، لكن الى حد ما فقط، فعندما تطرح مشكلة على نحو واضح وذكي، فانه يوجد دوما اناس قادرون على حلها . ويجب قبل كل شيء احداث تحول هام في اهتمامات صحافتنا . في اي اتجاه يكون هذا التحول ؟ في اتجاه القارىء، الحي ، كما هو في الواقع ، القارىء الجماهيري ، الذي ايقظته الثورة والذي ما يزال مع ذلك ضعيف الثقافة ، النهم الى المعرفة والمفتقر اليها، والذي يبقى انسانا يثير كل ما هو انساني اهتمامه.

والقارىء بحاجة الى ان نعيره انتباهنا وان كان لا يعرف دوما كيف يعبر عن هذه الرغبة. ولكن دعاة لجنة موسكو ومحرضيها الخمسة والعشرين نابوا عنه على افضل نحو في التعبير عن هذه الحاجة .



ان كتابنا الاعلاميين الشباب لا يجيدون جميعهم الكتابة المفهومة . ربما لانهم لم يضطروا الى شق طريقهم عبر القشرة القاسية للظلامية والجهل . وقد جاؤوا الى الادب التحريضي في وقت راجت فيه مجموعة من الافكار والكلمات والتعابير لدى فئات واسعة من الشعب . وهنالك خطر يهدد حزبنا : الانفصال عن الجماهير اللاحزبية ، وهذا الخطر ناجم عن انغلاقية دعايتنا في مضمونها وشكلها ، وعن ابتكار رطانة خاصة بالحزب لا يعجز عن فهمها تسعة اعشار الفلاحين فحسب ، وانما العمال ايضا . بيد ان الحياة لا تتوقف لحظة واحدة ، والاجيال تتوالى بانتظام . ان مصير الجمهورية السوفياتية هو اليوم ، الى حد كبير ، بين ايدي الذين كانوا في الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة عند وقوع الحرب الامبريالية وثورتي آذار واكتوبر . وتأثير هذه « الدفعة » من الشباب ، التي ستحل مكاننا ، سيبرز اكثر فاكثر .

والحال اننا لا نستطيع ان نتوجه الى هذه الشبيبة بالصيغ الجاهزة ، والجمل ، والتعابير ، والكلمات التي لها معناها بالنسبة الينا نحن « الشيوخ » ، لانها منبثقة عن تجربتنا السابقة ، والتي تبدو فارغة من كل مضمون بالنسبة اليها . يجب ان نتعلم ان نتكلم بلغتها ، اي بلغة تجربتها .

فالنضال ضد القيصرية ، وثورة ١٩٠٥، والحرب الامبريالية، وثورتا ١٩١٧ ، هي بالنسبة الينا تجارب معاشة ، وذكريات واحداث بارزة لنشاطنا الخاص . فنحن نتكلم عنها بالتلميح والكناية ، ونتذكر ونستكمل في اذهاننا ما لا نعبر عنه ، لكن ماذا

بالنسبة الى الشبيبة ؟ فهي لا تفهم هذه التلميحات والكنايات لانها لم تعشها ولم تستطع الاطلاع عليها عن طريق الكتب والروايات الموضوعية ، اذ هي غير متوفرة . فحيث يكتفي الجيل القديم بالتلميح يحتاج الشباب الى كتاب . وقد آن الاوان لكي نصدر سلسلة من الموجزات والمؤلفات في التربية السياسية الثورية الموجهة للشباب .

( ٣ )

# لا بد من الاهتمام بالجزئيات (★)

علينا ان نعيد بناء اقتصادنا المدمر . علينا ان نبني ، وننتج ، ونرمم ، ونرقع . اننا ندير اقتصادنا وفق اسس جديدة يفترض فيها ان تضمن رفاهية سائر الشغيلة . لكن الانتاج ، في جوهره ، يتلخص في صراع الانسان ضد قوى الطبيعة المناوئة ، وفي الاستخدام العقلاني للثروات الطبيعية . اما السياسة ، والمراسيم ، والشعارات فدورها ينحصر في تنظيم النشاط الاقتصادي بتحديدها له وجهة عامة . بيد ان انتاج السلع المادية ، والعمل المنهّج ، العنيد والمثابر ، هما وحدهما اللذان يستطيعان فعلا تلبية

---

(★) كتب هذا الفصل قبل عامين ( البرافدا ــ ١ اكتوبر ١٩٢١ ) . وقد بات الجيش اليوم يولي اهمية اكبر بكثير من ذي قبل لصيانة حربات البنادق والاحذية . لكن شعار « لا بد من الاهتمام بالجزئيات » ما يزال ، بصورة عامة، يحافظ على كامل قيمته حتى في ايامنا هذه ( ملاحظة للمؤلف ) .

حاجات الانسان . ان السيرورة الاقتصادية تتألف من اجـزاء وعناصر مختلفة ، من تفاصيل واشياء صغيرة . ويستحيل اعادة بناء اقتصاد من دون احاطة هذه الجزئيات باهتمام فائق . والحال ان هذا الاهتمام معدوم ـ او يكاد ـ عندنا . والمهمـة الاساسيـة للتثقيف والتثقف الذاتـي فـي ميـدان الاقتصـاد هـي ايقـاظ وتنمية وتعزيز هذا الاهتمام بمتطلبات الاقتصاد الخاصة، والتافهة واليومية . يجب الا نهمل شيئا ، وان نلاحظ ابسط الامور ، وان نتصرف ونتدخل في اللحظة المطلوبة ، وان نطالب الاخرين بحـذو حذونا . هذه المهمة تفرض نفسها علينا جميعا وفي سائر ميادين الحياة السياسية والبناء الاقتصادي .

ان تأمين الثياب والاحذية للجيش ليس بالامر السهل، نظرا للوضع الحالي للانتاج . وغالبا ما يكون التموين غير منتظم . لكن بالمقابل ليس ثمة من يهتم ، في الجيش ، بتصليح الاحذية والثياب المتوفرة او بالحفاظ عليها في حالة جيدة . فنادرا جدا ما تصبـغ الاحذية، وعندما نسأل عن السبب تأتينا اجوبة مختلفة: فتارة لان الدهان ليس متوفرا ، وتارة اخـرى لانه لـم يوزع فـي الوقـت المناسب ، وطورا لان الجزمات بنية اللون في حين ان الدهـان اسود ، الخ . غير ان السبب الرئيسي هو اهمال جنـود الجيش الاحمر وكوادره لمتاعهم . فالجزمة غير المصبوغـة ، ولا سيمـا ان كانت قد ابتلت ، تجف بسرعة ويكون مآلها الى سلة القمامة، وان كانت اسابيع معدودة فقط قد انقضت على استعمالها . ولما كنـا عاجزين اساسا عن تأمين الكميات المطلوبة من الجزم ، فقد بتنـا ننتجها كيفما كان . فأضحت تتلف بسرعة اكبر ايضا . انها لحلقة مفرغة. لكن ثمة وسيلة للخروج منها، وسيلة بسيطة للغاية. يجب ان تدهن الجزم في الوقت المطلوب ، وان تربط بعناية ، والا يشوه منظرها ويغير شكلها . لقد اتلفنا احذية اميركية جيدة لا لشيء الا لاننا لا نملك سيور احذية . علما بانه كان بامكاننا الحصول عليهـا فيما لو الححنا قليلا . على كل حال ، ان كانت السيـور مفقـودة

فذلك لاننا على وجه التحديد لا نعير بالا لدقائق الحياة اليومية . علما بان هذه الدقائق الصغيرة هي التي تصنع كل شيء في نهاية المطاف .

القصة نفسها تتكرر ، ولكن على نحو افظع بعد ، مع الحربات . فاذا كان من الصعب صنعها ، فانه من السهل اتلافها. والمطلوب هو الاعتناء بالحربة ، تنظيفها وتشحيمها . وهذه العناية تفترض اهتماما مستمرا ومثابرا . انها تفترض تدريبا كاملا، وتربية كاملة .

هذه الجزئيات التي تتراكم وتتفاعل تنتهي اما باعطاب شيء هام ... واما بتدمير شيء هام . فحفر الطريق الصغيرة التي لا يتم اصلاحها بسرعة تكبر وتشكل فجوات واخاديد تعيق السير وتلحق الاضرار بالعربات والسيارات والشاحنات ، وتتلف العجلات ، والطريق التي تكون في حالة متردية تتسبب في انفاق اموال وجهود توازي عشرة اضعاف ما كان سينفق على تصليحها . وبسبب جزئيات صغيرة من هذا القبيل ، تتلف الآلات والمعامل والابنية . وللحفاظ عليها في حالة جيدة لا بد من ان نولي الجزئيات اهتماما يوميا ودائما . وهذا الاهتمام ينقصنا ، لان تربيتنا الاقتصادية والثقافية غير مكتملة .

غالبا ما يصار الى الخلط بين الاهتمام بالجزئيات وبين النزعة البيروقراطية . وهذا خطأ فادح . فالنزعة البيروقراطية تكمن في تسليط الاهتمام على الشكل الفارغ على حساب المضمون وعلى حساب العمل . والنزعة البيروقراطية تغوص في الشكلية ، في صغائر الاخطاء والهفوات ، ولا تحل ابسط الامور العملية . النزعة البيروقراطية بالعكس تتجنب ، بصورة عامة ، التفاصيل العملية التي تشكل لب المشكلة ، وتكتفي فقط بمحاولة تنظيم ركام اوراقها القديمة .

ان المطالبة بعدم التف والقاء اعقاب السجائر على السلالم وفي الممرات هو « امر بسيط » ، مطلب لا يذكر ، بيد ان له دلالته

التربوية والاقتصادية الهامة . فالشخص الذي يتف دون حياء على سلم او على ارضية خشبية هو عديم الفائدة ، هو انسان غير مسؤول . ولن ننتظر منه ان يعيد بناء الاقتصاد . فلا ريب في انه لن يصبغ جزمته ، وفي انه سيكسر لوحا زجاجيا بلا انتباه ، كما انه سيكون مقملا . . .

اعيد فاكرر ان بعضهم قد يرى في الاهتمام الدائب بهذا النوع من الجزئيات ضربا من المشاحنة والمشاكسة ومن « النزعة البيروقراطية » . لكن غالبا ما يخفي عديمو الفائدة واللامسؤولون طبيعتهم بالنضال ضد نزعة بيروقراطية مزعومة . انهم يقولون: « لمَ هذه الضجة كلها حول عقب سيجارة مرمي على سلم ! » . وهذه هي الحماقة بأم عينها . فالقاء اعقاب السجائر على الارض يعني احتقار عمل الاخرين . ومن لا يحترم عمل الاخرين ، فلا بد ان يكون مهملا لعمله الخاص ايضا . والحال انه كي تتطور المساكن المشتركة (١) ، فلا بد ان يهتم كل مستأجر ، رجلا اكان ام امرأة، بتوفير النظافة والترتيب للدار بأكملها ، والا وجد المستأجرون انفسهم — وهذا ما يحصل غالبا مع الاسف — في جحر مقمل ، مليء بالبصاق لا في دار مشتركة . وعلينا ان نحارب ، بلا كلل ولا رحمة ، هذه الوقاحة ، هذه القلة في التهذيب ، هذا الاهمال . نحارب بالشرح والتفسير ، باعطاء المثل الصالح ، بالقيام بعمل اعلامي ، بنصح الناس وبحملهم على ان يكونوا مسؤولين . فمن يصعد على سلم ملوث او يجتاز باحة قذرة ولا يبدي اي ملاحظة، فهو مواطن غير صالح وهو بان بلا وجدان .

ان الجيش يجمع بين الجوانب الايجابية والسلبية للحياة الشعبية . وهذا ما يتضح تماما في التربية الاقتصادية . فعلى الجيش ان يرتقي ، ولو درجة واحدة ، في هذا الميدان . ويمكن تحقيق ذلك بفضل الجهود المتضافرة لكوادر الجيش القيادية، من

(١) اي المساكن المنظمة على شكل كومونة . «م» .

اعلى السلم الى اسفله ، ولخيرة عناصر الطبقة العاملة والفلاحية برمتها .

ففي الوقت الذي كان فيه الجهاز الحكومي السوفياتي ما يزال قيد التكوين ، كانت التحزبية (٢) قد تغلغلت في الجيش فأمسى يطبق اساليبها . وقد خضنا كفاحا مثابرا ، لا هوادة فيه، ضد هذه العقلية وحصلنا على نتائج هامة دون ادنى ريب : فنحن لم ننشىء فقط جهاز قيادة وادارة مركزيا، بل توصلنا ايضا، وهذا اهم ، الى حمل الشغيلة على ان يعيدوا النظر في ضمائرهم بهذه العقلية التحزبية على صعيد وعيهم بالذات .

وعلينا اليوم ان نخوض كفاحا ليس بأقل اهمية : علينا ان نحارب سائر اشكال «التنبلة» ، والاهمال ، واللامبالاة ، والقذارة، واللاانضباطية ، والاسترخاء ، والتبذير . فتلك هي درجات واوجه مختلفة لداء واحد : من جهة نقص في الانتباه ، ومن الجهة الاخرى استهتار سمج . ومن الضروري ان نقوم في هذا المجال بعملية واسعة النطاق ، بكفاح يومي ، مثابر ودائب نسخر له سائر الوسائل المتوفرة ـ من تحريض واقتداء ونصح وعقاب .. اسوة بما اقدمنا عليه عندما اضطررنا الى القضاء على التحزبية .

ان اعظم خطة لا تعدو ان تكون ضربا من العبث اذا لم تحسب حسابا للجزئيات ، فما الفائدة مثلا من استصدار افضل المراسيم ان كان الاهمال سيحول دون تبليغها في الوقت المناسب ، او ان كانت ستنسخ بأخطاء ، او ان كانت ستطالع بلا انتباه ؟ وما يصح على المستوى الادنى ينطبق على المستوى الاعلى .

نحن فقراء ولكنا مبذرون . نحن لا نعرف الانتظام . ونحن مهملون . وايضا قذرون . ولهذه العيوب جذور في ماضي عبوديتنا .

---

**(٢) التحزبية : تعبير تحقيري كان يقصد به الكوادر الحزبية المتطلعة الى ان تكون « اكثر حزبية من الحزب نفسه » والتي كانت تنتهي الى الفوضوية والى الخروج على الانضباط . «م» .**

لذا لن نستطيع التخلص منها الا تدريجيا ، وبفضل دعاية مثابرة، والقدوة الصالحة ، والبرهنة ، والرقابة الدقيقـة ، والتيقـظ ، والتشدد في كل لحظة وآن .

لتحقيق مشاريع عظمى ، علينا أن نولي أصغر الجزئيـات اهتمامنا ! ـ حول هذا الشعار ينبغي ان يلتف سائر المواطنيـن الواعين والمدركين الذين يتصدون لمرحلة جديدة من البناء والتطوير الثقافـي .

( ٤ )

# لاعادة بناء نمط الحياة لا بد من معرفته

ان قضية نمط الحياة هي التي تبين لنا ، باكبر قدر من الوضوح ، الى اي حد يكون الفرد المعزول منفعلا بالاحداث ،لا فاعلها . فنمط الحياة ، اي المحيط والعادات اليومية ، يتكون ، اكثر حتى من الاقتصاد ، « من خلف ظهور الناس » ( التعبير لماركس ) . فالابداع والخلق الواعي في ميدان نمط الحياة لم يشغل الا مكانا ثانويا للغاية في تاريخ البشرية . ان نمط الحياة هو حصيلة تجارب الافراد غير المنظمة ، وهو يتبدل على نحو عفوي تماما تحت تأثير التقنية او النضالات الثورية ، وهو بالاجمال يعكس ماضي المجتمع اكثر مما يعكس حاضره .

خلال العقود الاخيرة ، انبثقت عندنا بروليتاريا شابة، لا ماضي لها ، من الطبقة الفلاحية ، وجزئيا فقط من الطبقة البورجوازية الصغيرة . ونمط حياة هذه البروليتاريا يعكس

تماما اصلها الاجتماعي . يكفي ان نذكر بهذا الصدد « عادات شارع راستريائيف » لغليب اوسبنسكي (١) . فماذا يميز سكان شارع راستريائيف، اي عمال تولا في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ؟ انهم بورجوازيون صغار او فلاحون فقدوا ، في غالبيتهم ، كل امل في ان يصبحوا ذات يوم ملاكين مستقلين بانفسهم ، انهم خليط من البورجوازية الصغيرة الامية ومن الحفاة . وقد حققت البروليتاريا ، منذ تلك الحقبة ، تقدما هائلا ، غير ان هذا التقدم هو اكثر اهمية بكثير على الصعيد السياسي منه على صعيد العادات ونمط الحياة . صحيح ان شارع راستريائيف لم يعد موجودا في شكله الاولي . فتثقيف التلامذة ، والخنوع امام ارباب العمل ، والسكر ، والجنوح، كل ذلك زال وامّحى . لكن العلاقات بين الزوج والزوجة ، بين الاهل والاولاد ، داخل الاسرة المقطوعة عن العالم ، ما تزال متشبعة ب « عقلية راستريائيف » هذه . وقد نحتاج الى سنوات وعقود من التطور الاقتصادي والثقافي لطرد هذه العقلية من ملاذها الاخير ــ نمط الحياة الفردي والعائلي ــ ولاعادة صياغتها وفق روح جماعية .

ان مشكلات نمط الحياة العائلي كانت موضوع نقاش مثير ــ على نحو خاص ــ خلال اجتماع محرضي موسكو الذي سبق ان تحدثنا عنه . وقد كانت مشكلة مؤلمة بالنسبة الى الجميع . فقد تراكمت الانطباعات ، والملاحظات ، وبخاصة الاسئلة ، ولم يكن ثمة اثر لجواب . بل اكثر من ذلك : فالاسئلة نفسها لم تلق اي صدى في الصحافة ولا في المنظمات . ومع ذلك فاي حقل

---

**(١) غليب اوسبنسكي ( ١٨٤٣ ــ ١٩٠٢ ) : كاتب واقعي مرتبط ب « المدرسة الطبيعية » ، تعطي اعماله صورة شاملة عن حياة بسطاء الناس ( صغار الموظفين ، فلاحين ، عمال ) . و« عادات شارع راستريائيف » هي اول اعماله الهامة . «م» .**

واسع للبحث ، للتفكير ، وللعمل يوفره لنـا نمط حياة المحرضين العمال ، نمط الحياة الشيوعي ، واي حقل توفره لنـا ايضا نقطة الوصل بيـن نمط حيـاة الشيوعييـن ونمط حيـاة الجماهير العمالية العريضة ؟

ان ادبنا الفني لا يفيدنـا بشيء في هذا المجال . فالفـن ، بطبيعته ، محافظ ، وهـو متخلف عن الحياة ، وغير مؤهل للقبض على ظواهـر هي رهـن التكويـن . لقد اثارت قصة « الاسبوع » لليبدنسكي (٢) لدى بعض الرفاق حماسة بدت لـي متطرفـة ، وخطرة على المؤلف الشاب . فمن وجهة نظر شكليـة تتسم قصة « الاسبوع » بطابع تعليمي ، على الرغم من بعض اللمسات الفنيـة فيها ، وكـي يصبح ليبدنسكي فنانـا حقيقيـا فهـو يحتاج الـى عمل دؤوب ، مثابر ودقيق . وآمل ان يتحقق له ذلك . لكن ليس هذا الجانب من المشكلـة هو موضوع اهتمامنـا الآن . فنجـاح « الاسبوع » ليس مرده الى الميزات الفنيـة للقصة ، وانما الـى الطريقـة « الشيوعيـة » في مواجهـة الحياة التي وصفت فيهـا . علمـا بان الوصف ينقصه العمق حول هذه النقطة بالذات.

فـ « لجنة الاقليم » قـدّمت لنـا على نحـو علمي اكثر مما ينبغي ، فهي تبدو بلا جذور عميقة ، وغير مندمجة بالمنطقة . لذا بدت « الاسبوع » باكملهـا وكأنهـا روايـة على حلقات ، شـأن تلك القصص التي تصف حياة الهجـرة الثوريـة . لا شـك انـه من المفيـد والمثير وصف « نمط حياة » لجنـة اقليم ، غيـر ان الصعوبـات والفائدة تبرز حيثمـا تتصل حياة المنظمة الشيوعية بالحيـاة اليوميـة للشعب ـ على نفس النحـو الوثيق الـــذي تتداخل به عظام الجمجمة ـ . يجب التعرض للمشكلات على نحو

---

**(٢) يوري نيقولايفتش ليبدنسكي ( ١٨٩٨ ـ ١٩٥٩ ) ، واحـد من المثليـن الاوائل للادب السوفياتي الحديث ، شارك في الحرب الاهليـة واعطى عنهـا وصفا رومانسيا في قصته الاولى « الاسبوع » . «م» .**

جذري . لهذا السبب فان نقطة اتصال الحزب الشيوعي بالجماهير الشعبية هي المكان الاساسي لكل فعل تعاون او معارضة تاريخي .

ان النظرية الشيوعية متقدمة على حياتنا اليومية بعشرات السنوات ، بل بعدة قرون في بعض المجالات . ولولا ذلك لما استطاع الحزب الشيوعي ان يكون عاملا تاريخيا ذا قوة ثورية هائلة . وبفضل واقعيتها ومرونتها الجدلية ، تنشىء النظرية الشيوعية مناهج سياسية تضمن عملها في الميادين كافة . لكن النظرية السياسية شيء ، ونمط الحياة شيء آخر . فالسياسة مرنة ،في حين ان نمط الحياة جامد ومتصلب. لهذا السبب تحصل كل هذه الصدامات في الوسط العمالي عندما يعتمد الادراك والوعي على التقاليد ، صدامات يزيد من حدتها كونها تبقى بلا صدى . فلا الادب الفني ولا حتى الصحف تشير اليها . فصحافتنا تلزم الصمت حول هذه المشكلات . اما المدارس الفنية الجديدة التي تحاول مواكبة الثورة ، فنمط الحياة بصورة عامة غير مطروح بالنسبة اليها. فهي ، كما ترون ، تطمح الى خلق الحياة الجديدة لا الى تصويرها . لكن ابتكار نمط حياة جديد دفعة واحدة امر مستحيل . واقصى ما بمستطاعنا ان نشيده انطلاقا من عناصر واقعية ، وقابلة للتطوير . لذا ينبغي ان نتعرف اولا عما هو موجود في تصرفنا ومتناولنا قبل ان نقدم على البناء . وهذا امر ضروري ليس فقط للتأثير على نمط الحياة ، وانما بصورة عامة لكل نشاط انساني واع .

فللمشاركة في صياغة نمط حياة جديدة ، يجب ان نكون عالمين اولا بما هو موجود ، وبالتغييرات الممكنة لمواد البناء التي هي بين ايدينا . ارونا ، بل اروا انفسكم اولا ، ما يجري في مصنع ، في تعاونية ، في الوسط العمالي ، في النادي ، في مدرسة ، في الشارع ، في خمارة ، حاولوا ان

تفهموا ما يجري فيها ، اي انظروا الى المشكلات على نحو يتيح لكم العثور فيها على ترسبات الماضي واكتشاف بذور المستقبل . هذا النداء موجه الى الادباء والصحفيين ، الى المراسلين العماليين وكتاب التحقيقات على حد سواء . ارونا الحياة كما خرجت من بوتقة الثورة .

لكن لا يحتاج المرء الى عميق التفكير كي يدرك ان التمنيات وحدها غير قادرة على تغيير كتابنا . ومن الضرورة الملحة هنا طرح المشكلات على نحو سليم وتوجيهها ايضا على نحو سليم . يجب التأكيد قبل كل شيء على ان دراسة نمط الحياة العمالي وتحليله مهمة تقع على عاتق الصحفيين ، او على الاقل على عاتق الذين يملكون عيونا وآذانا من بينهم . يجب توجيههم نحو هذا العمل ، وتزويدهم بالمعلومات ، وتصحيح كتاباتهم ، وتثقيفهم على النحو المنشود ليصبحوا مؤرخي ثورة نمط الحياة. ويجب ، في الوقت نفسه ، العمل على توسيع وجهة نظر المراسلين العماليين . والواقع ان كل واحد من بينهم يستطيع ان يقدم مقالات اكثرافادة وتثقيفا بكثير من تلك التي يكتبونها حاليا . لكن لبلوغ ذلك ، لا بد من صياغة الاسئلة بوعي وادراك ، ومن طرح المشكلات على نحو سليم ، ومن اثارةالنقاش وتوجيهه الى الهدف المطلوب .

لكي ترتقي الطبقة العاملة الى مرتبة ثقافية أعلى ، ينبغي عليها ، وبخاصة على طليعتها ، ان تراجع نمط حياتها . ومن اجل ذلك ينبغي ان تتعرف عليه اولا . ان البورجوازية ،بفضل طبقة مثقفيها بالدرجة الاولى ، كانت قد حلت هذه المشكلة قبل ان تستولي على السلطة بفترة طويلة : فعندما كانت ما تزال في المعارضة كانت قد اصبحت الطبقة المالكة ،والفنانون والشعراء والصحفيون كانوا مذاك في خدمتها وكانوا يساعدونها على التفكير ، بل كانوا يفكرون بالنيابة عنها .

ان القرن الثامن عشر الفرنسي ، المعروف بعصر الانوار ، كان

عصر انكباب الفلاسفة البورجوازيين على تحليل مختلف اوجه نمط الحياة الفردي والاجتماعي ، وعلى عقلنة هذه الاوجه ، اي على اخضاعها لمتطلبات « العقل » . على هذا النحو كانوا يتصدون لا لمشكلات النظام السياسي والكنيسة فحسب ، وانما ايضا لمشكلات العلاقات بين الجنسين ، وتربية الاطفال الخ . ومن الواضح ان مجرد طرحهم ودراستهم لهذه المشكلات قد اتاح لهم رفع السوية الثقافية للفرد ، الفرد البورجوازي طبعا ،وسويته الفكرية في المرتبة الاولى . لكن جهود فلسفة الانوار الرامية الى العقلنة ، اي الى اعادة بناء العلاقات الاجتماعية والفردية على اساس قوانين العقل ، كانت ترتكز الى الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، حجر زاوية المجتمع الجديد القائم على العقل . والملكية الخاصة كانت تعني السوق واللعبة العمياء للقوى الاقتصادية غير الموجهة من قبل « العقل » . وهكذا شيد على اساس من العلاقات الاقتصادية التجارية نمط حياة تجاري هو الاخر . فطالما كان قانون السوق هو السائد ، كان من المستحيل التفكير بعقلنة حقيقية لنمط حياة جماهير الشعب ، لذا جاء تطبيق التصورات العقلانية لفلاسفة القرن الثامن عشر محدودا للغاية ، على الرغم مما اتسمت به هذه التصورات احيانا من ذكاء نافذ وجرأة .

في المانيا يمتد عصر الانوار الى النصف الاول من القرن التاسع عشر . على رأس الحركة نجد « المانيا الفتاة » التي كان يتزعمها هاينه وبورنه . وهنا ايضا نجدنا امام التفكير النقدي للجناح اليساري للبورجوازية ، لشريحتها المثقفة التي كانت قد اعلنت الحرب على العبودية ، على الخنوع ، على الجهل ، على الحماقة البورجوازية الصغيرة ، وعلى الافكار المسبقة ، والتي كانت تجاهد لاقامة ملكوت العقل ، وانما بقدر اكبر من الريبية من سلفائها الفرنسيين . وقد اختلطت هذه الحركة فيما بعد بثورة ١٨٤٨ البورجوازية الصغيرة ، التي عجزت عن

الاطاحـة بالسلالات الملكيـة الالمانيـة المتعددة، فكم بالاحرى اعادة بنـاء كامل الحياة البشريـة .

ان حركـة الانوار لـم ترتد اهميـة عندنا ، في روسيـا المتخلفـة ، الا فـي النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ان تشيرنيشفسكي ، وبيساريف ، ودوبروليوبوف ، المتخرجين مـن مدرسـة بييلنسكي ، لم يوجهوا انتقاداتهم للعلاقات الاقتصادية بقدر مـا وجهوها لتفكك نمط الحياة ، ولطابعه المتخلف والاسيوي، معارضين نموذج الانسان التقليـدي بآخر جديد ، « واقعي » و« نفعي » ، كـان يتطلع الى تشييد حياته وفق قوانيـن العقـل فتحول بسرعـة الى « شخصيـة نقدية » . هذه الحركـة ،التي اندمجت بالشعبويـة ، تمثل الشكل الروسـي ، المتأخر ، لعصر الانوار . لكـن ان لـم تتمكـن العقول النيرة للقرن الثامـن عشر الفرنسي من ان تغير ، الا في حدود ضيقة ، نمط حيـاة وعادات كونتهـا السوق لا الفلسفة ،وان كان الدور التاريخي الجلي للانوار في المانيا اكثر محدوديـة ايضا ، فان التأثير المباشر للانتلجانسيا الروسيـة النيرة على نمط الحياة وعادات الشعب كـان معدومـا تماما . ان الدور التاريخي لحركـة الانوار في روسيا ، بمـا فيـه دور الشعبويـة ، قد اقتصر في نهايـة المطاف على تهيئة شروط ظهور حزب ثوري بروليتاري .

وانما مع استيلاء الطبقة العاملة على السلطـة فقط توفرت الشروط لتحويل حقيقي وجذري لنمط الحيـاة . فعقلنـة نمط الحياة ، اي تغييره وفق مقتضيات العقل ، لا يمكن ان تتم ان لـم يعقلـن الانتاج ، ذلـك ان جذور نمط الحياة هي في الاقتصاد. ووحدهـا الاشتراكيـة تحدد لنفسها مهمة التصدي علـى نحـو عقلاني لنشاط الانسان الاقتصادي واخضاع هذا النشاط للعقل. فلقـد اكتفت البورجوازية ، بواسطـة عناصرها الاكثر تقدميـة ، بعقلنـة التقنيـة من جهـة ( العلوم الطبيعيـة ، التكنولوجيا ، الكيمياء ، الاختراعات ، المكننة ) والسياسـة من جهـة اخـرى (بواسطـة النظام البرلماني)، اما الاقتصاد فقد بقي ميدانا للمنافسة

العمياء . لهذا السبب بقي الجهل وعدم الادراك يتحكمان بنمط حياة المجتمع البورجوازي . والطبقة العاملة التي استولت على السلطة تضع نصب عينيها اخضاع الاساس الاقتصادي للعلاقات الانسانية للرقابة والتوجيه الواعي .

لكن هذا يفترض ان نجاحاتنا في ميدان نمط الحياة وثيقة الارتباط بنجاحاتنا في الميدان الاقتصادي . بيد اننا نستطيع دون ادنى شك ، حتى في اطار وضعنا الاقتصادي الراهن ، ان نزيد من النقد ، ومن المبادرات ، ومن العقلنة فيما يتعلق بنمط حياتنا . فتلك هي احدى المهام الاساسية لعصرنا . غير انه من الواضح ان اعادة البناء الجذرية لنمط الحياة ( تحرير المراة من عبودية البيت ، تنشئة الاطفال على الروح الجماعية ، تحرير الزواج من القيود الاقتصادية الخ ) لا يمكن ان تتم الا بقدر ما تتغلب الاشكال الاشتراكية للاقتصاد على اشكاله الراسمالية. والتحليل النقدي لنمط الحياة هو اليوم الشرط الضروري للحؤول دون ان يظل هذا الاخير ، المحافظ بسبب تقاليده الالفية، متخلفا بالمقارنة مع امكانات التقدم الراهن والمقبل الذي توفره لنا طاقاتنا الاقتصادية الحالية . من جهة اخرى ، فان ابسط النجاحات في ميدان نمط الحياة تسمح برفع السوية الثقافية للعامل وللعاملة ، وتزيد على الفور من امكانيات عقلنة الاقتصاد ، وبالتالي ، من امكانيات تراكم اشتراكي اسرع، وهذه النقطة الاخيرة توفر بدورها امكانات تحقيق مكاسب جديدة في مجال تشريك نمط الحياة . فالارتباط هنا جدلي : صحيح ان العامل التاريخي الاساسي هو الاقتصاد ، لكن نحن، اي الحزب الشيوعي ، اي دولة العمال ، لا نستطيع ان نؤثر على الاقتصاد الا بواسطة الطبقة العاملة ، وعن طريق رفع مستوى التأهيل التقني والثقافي للعناصر التي تكونها . ان النضالية الثقافية في دولة عمالية تخدم الاشتراكية ، والاشتراكية تعني تقدم الثقافة ، الثقافة الحقيقية ، غير الطبقية ، الثقافة الانسانية والمفيدة للانسانية .

( ٥ )

# الفودكا والكنيسة والسينما

ثمة ظاهرتان هامتان تركتا بصمتهما على نمط الحياة العمالي: يوم العمل من ثماني ساعات وحظر الفودكا . وتصفية احتكار الفودكا كانت قد سبقت الثورة وضرورات الحرب هي التي فرضتها . فقد كانت الحرب تستلزم موارد عديدة ، مما اضطر القيصرية الى التخلي عن الدخل الذي كان يحققه لها بيع المشروبات الروحية ، دون ان تعاني طبعا من خسارة تذكر : فمليار بالزائد او مليار بالناقص لا يغير في واقع الامر شيئا ، وقد ورثت الثورة تصفية احتكار الفودكا ، وابقت عليها ، وانما لاعتبارات مبدئية . والحق ان صراع الحكومة مع الادمان على الكحول ، ذلك الصراع الثقافي والتربوي والقسري في آن واحد ، لم يأخذ معناه التاريخي الكامل الا بعد ان قامت الطبقة العاملة ــ البانية الواعية لاقتصاد جديد ــ بالاستيلاء على السلطة . من هذا المنظور ، فان حظر بيع الكحول بسبب الحرب الامبريالية لا يبدل على الاطلاق من واقع ان تصفية الادمان على الكحول هي مكسب يضاف الى حصيلة مكاسب

الثورة . ومهمتنا ان نطور ، وان نعزز ، وان ننظم . وان نكفل النجاح لسياسة مناهضة الادمان في بلد العمل المتجدد. ونجاحاتنا الاقتصادية والثقافية ستزداد بالتوازي مع تراجع عدد «الدرجات» فلا مجال هنا للتساهل او التنازل .

فيما يتعلق بيوم العمل من ثماني ساعات فانه مكسب مباشر حققته الثورة ، بل واحد من اهم مكاسبها . انه يحدث ، بحد ذاته ، تغييرا جوهريا في حياة العامل ، وذلك بتحريره ثلثي يوم العمل. وهذا من شأنه خلق قاعدة لتحويلات جذرية لنمط الحياة، لتحسين السلوك والآداب ، لتطوير التربية الجماعية ، الخ ، لكن الامر لا ينحصر بتأمين هذه القاعدة. فبقدر ما يجري استغلال زمن العمل على نحو مفيد ، تتنظم حياة العامل على نحو اكمل واذكى . وهنا على وجه التحديد يكمن المعنى الجوهري لثورة اكتوبر ، كما سبق ان قلنا : فالنجاحات الاقتصادية لكل عامل على حدة تؤدي، على نحو آلي ، الى ترقية الطبقة العاملة برمتها ماديا وثقافيا. « ثماني ساعات من العمل ، ثماني ساعات من النوم ، وثماني ساعات من الحرية » : هكذا يقول الشعار القديم للحركة العمالية. غير انه ، في الظروف الحالية ، يأخذ مضمونا جديدا تماما: فبقدر ما تكون ساعات العمل الثماني منتجة ، وبقدر ما تكون ساعات النوم الثماني صحية ومجددة للقوى ، تصبح ساعات الحرية الثماني مفيدة ثقافيا ومغنية للشخصية .

من هنا يتضح لنا ان مشكلة التسلية هي مشكلة ثقافية وتربوية بالغة الاهمية . فطبع الطفل يتكشف ويتكون عن طريق اللعب . وطبع الانسان البالغ يتجلى بوضوح اكبر في الالعاب والتسلية . لذا فان التسلية واللعب مؤهلان لاحتلال مكانة مرموقة في تكوين طبائع طبقة برمتها ، ولا سيما اذا كانت هذه الطبقة فتية ومتقدمة كالبروليتاريا . ان الطوباوي الفرنسي الكبير فورييه، المحتج على التقشف المسيحي وعلى قمع الطبيعة البشرية، كان يشيد مشاركه Phalanstères ( كومونات المستقبل )

على اساس الاستخدام والتنسيق السليم والعقلاني للغرائز والاهواء . وهذه فكرة عميقة . فالدولة العمالية ليست رهبانية ولا ديرا . ونحن نقبل الناس كما خلقتهم الطبيعة ، وكما انشأهم المجتمع القديم من جهة وشوههم من جهة اخرى . وفي هذه المواد البشرية الحية نبحث عن النقطة التي يمكن ان نركز فيها عتلة الثورة والحزب والدولة . ان الرغبة في التسلية ، واللهو ، والعبث ، والضحك ، هي رغبة مشروعة للطبيعة البشرية ، ونحن قادرون ، بل ملزمون بأن نؤمن لها تلبية فنية اكثر فاكثر ، وان نجعل من التسلية ، في الوقت نفسه ، وسيلة تربية جماعية بلا اكراه ولا توجيه قسري .

ان السينما في هذا المجال ، وفي الوقت الراهن ، وسيلة تفوق سائر الوسائل الاخرى اهمية . فقد اقتحم هذا الاختراع المذهل حياة البشرية بسرعة لم يسبق لها مثيل في الماضي . وفي المدن الرأسمالية اضحت السينما جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية ، اسوة بالحمامات العامة ، والخمارات ، والكنيسة وغيرها من المؤسسات ، الحميدة او غير الحميدة . والشغف بالسينما ناجم عن رغبة في التسلية ، في مشاهدة اشياء جديدة ومجهولة، في الضحك ، وفي البكاء ايضا ولكن على شقاء الاخرين واحزانهم . كل هذه المتطلبات تلبيها السينما على نحو مباشر ، مذهل ، مصور، حي، وذلك دون ان تستلزم اي شيء من المُشاهد ولا حتى ثقافة بدائية . من هنا مصدر ذلك الحب المشحون بعرفان الجميل الذي يكنه المشاهد للسينما ، ينبوع الانطباعات والاحاسيس الذي لا ينضب . تلك هي نقطة الانطلاق ، بل ذلك هو المضمار الشاسع الذي يمكننا الانطلاق منه لتطوير الثقافة الاشتراكية .

ان نكون قد عجزنا حتى الان ، اي منذ ستة اعوام تقريبا، عن السيطرة على السينما ، فهذا ما يبين الى اي نحن حمقى وجهلة ، ان لم نقل ببساطة الى اي حد نحن محدودو الافق . فهذه الوسيلة التي بين ايدينا هي افضل وسيلة للدعاية ، سواء اكانت

هذه الدعاية تقنية ، ام ثقافية ، ام مناهضة للادمان على الكحول، ام صحية ، ام سياسية . انها تيسر القيام بدعاية هي في متناول فهم الجميع وجاذبة لاهتمام الجميع ، دعاية تستحوذ على المخيلة. وهي ، علاوة على ذلك ، قابلة لان تصبح مصدر دخل ايضا .

والسينما ، بصفتها مصدر جذب وتسلية ، قادرة على منافسة مشارب الجعة والحانات . ولا ادري ما الاكثر رواجا في باريس ونيويورك ، حاليا : الحانات ام دور السينما ؟ ولا اي منها يأتي بريع اوفر . لكن من الواضح ان السينما تنافس الخمارات قبل اي شيء اخر فيما يتعلق بانفاق ساعات الحرية الثماني . فهل في مقدورنا السيطرة على هذه الوسيلة الرائعة ؟ لم لا ؟ فالحكومة القيصرية اوجدت ، خلال سنوات معدودة ، شبكة من الخمارات التي كانت تعود عليها بمليارات من الروبلات الذهبية . فلمَ تعجز حكومة عمالية عن تنظيم شبكة من دور السينما ، ولم تعجز عن غرس هذا النمط من التسلية والتربية في الحياة الشعبية، فتعارض بها الادمان على الكحول ، وتؤمن لنفسها بواسطتها مصدر دخل ؟ هل هذا قابل للتحقيق ؟ لم لا ؟ صحيح ان الامر لن يكون سهلا . لكنه يبقى اكثر انسجاما وتناسبا مع طبيعة الدولة العمالية وقواها وطاقاتها التنظيمية من تجديد شبكة الخمارات (١) .

ان السينما تنافس الخمارة ، بل تنافس الكنيسة ايضا.

---

**(١) كنت قد انتهيت من كتابة هذه السطور عندما وجدت في العدد الاخير من «البرافدا» ( المؤرخ في الثلاثين من حزيران ) المقطع التالي المأخوذ عن مقال كان الرفيق غورديف قد بعث به الى هيئة التحرير : « ان صناعة السينما مشروع مجز للغاية ، ويدر ارباحا طائلة . وقد يؤدي استغلال ذكي وعقلاني ونبيه لاحتكار السينما الى تحسين اوضاع خزينتنا ، تماما كما كان استغلال احتكار بيع الفودكا يدعم وضع الخزينة القيصرية » . وفي مكان اخر ، يعرض الرفيق غورديف بعض الملاحظات العملية حول طريقة نقل نمط الحياة السوفياتية الى الشاشة . وهذه في رايي مسالة تستلزم تحليلا جديا وعينيا .**

وقد تكون هذه المنافسة قاضية بالنسبة الى الكنيسة اذا ما أكملنا انفصال الكنيسة عن الدولة الاشتراكية بقران هذه الدولة الاشتراكية مع السينما .

ان الشعور الديني منعدم في الواقع لدى الطبقة العاملة الروسية . على كل ، لم يكن له في يوم من الايام من وجود فعليا. فالكنيسة الاورثوذكسية كانت تمثل مجموعة من التقاليد وتنظيما سياسيا . وقد فشلت في الولوج بعمق الى وجدان الجماهير الشعبية ، وفي الربط بين عقائدها وقوانينها وبين المشاعر العميقة لهذه الجماهير . والسبب هو واحد دائما : جهل روسيا القديمة، بما فيه كنيستها . لذلك ، عندما يستيقظ العامل الروسي على الثقافة ، فقد يتحرر بكثير من السهولة من الكنيسة التي كانت علاقته بها سطحية . صحيح ان الامر اكثر صعوبة بالنسبة الى الفلاح، لا لانه قد تعمق وتفاعل على نحو اوثق مع تعاليم الكنيسة ـ اذ ليس ثمة شيء من هذا القبيل ـ وانما لان نمط حياته الرتيب والروتيني وثيق الارتباط بطقوس الكنيسة الرتيبة والروتينية .

ان العامل ـ نقصد بكلامنا الجمهور العمالي اللاحزبي ـ يقيم مع الكنيسة علاقات قائمة في معظم الاحيان على العادة ، العادة المتأصلة على نحو خاص لدى النساء . فالايقونات قد تترك معلقة في البيت لانها موجودة فيه منذ زمن طويل . فهي تزين الجدران التي قد تبدو عارية بدونها ، اي غير مألوفة . قد لا يقدم العامل على شراء ايقونات جديدة ، لكنه لا يجد في نفسه الارادة اللازمة للتخلص من الايقونات القديمة . كيف يحتفل بعيد الربيع ان لم يكن يصنع الكوليتش او الباسكا (٢) ؟ وقد جرت العادة ان تبارك هذه الحلويات كي يكتمل العيد . ولم تعد الناس تذهب الى الكنيسة

---

**(٢) كوليتش وباسكا، نوعان من الكاتو يصنعان عادة في عيد الفصح. الكوليتش هو نوع من البريوشة الاسطوانية الشكل . اما الباسكا فهي كاتو بالجبن الابيض هرمي الشكل . « م » .**

من باب التدين ، وانما لان الطقس جميل ، ولان الكنيسة جميلة وفيها جمهور غفير ، ولان الغناء فيها جيد . والواقع ان الكنيسة تمارس جذبها بسلسلة من الاغراءات الاجتماعية ـ الجمالية غير المتوفرة في المصنع والاسرة والشارع . أما الايمان فلا وجود له، او لا وجود له تقريبا . والشيء الاكيد على كل حال هو انعدام الاحترام لهيئةالاكليروس وانعدام الثقة فيالقوة السحرية للطقوس الدينية . لكن من جهة اخرى فان ارادة تحطيم هذا كله منعدمة بدورها . ان اللهو والتسلية يلعبان دورا هاما في طقوس الكنيسة. فالكنيسة تلجأ الى اساليب مسرحية لتمارس تأثيرها على النظر، والسمع ، والشم (البخور!) ، ومن ثم على المخيلة . والحاجة الى المسرح ـ اي الى مشاهدة وسماع ما هو غير مألوف ، ما هو بهي وزاهي الالوان ، ما يخرج عن الرتابة اليومية ـ هذه الحاجة كبيرة لدى الانسان ، وغير قابلة للاستئصال ، وتلازمه من الطفولة وحتى الشيخوخة . والدعاية المناهضة للدين غير كافية لتحرير الجماهير العريضة من هذه الطقوس ، من هذا الورع الروتيني. صحيح انها ضرورية . لكن تأثيرها يبقى محصورا بفئة صغيرة من الناس هم من الاساس اكثرهم اطلاعا على الصعيد الايديولوجي. واذا كانت الجماهير العريضة لا تنصاع للدعاية المناهضة للدين، فليس ذلك لان علاقاتها الروحية بالدين قوية ، وانما بالعكس لانها تفتقر لكل رابط ايديولوجي ولانها تقيم مع الكنيسة علاقات عديمة الشكل ، روتينية ، آلية ، لا تعيها ، شأن ذلك المتسكع الذي لا يرفض المشاركة في زياح او قداس احتفالي ، وسماع التراتيم او التلويح بيديه . هذه الشعائرية التي لا اساس ايديولوجي لها ، هي التي تنحفر بقوة عطالتها في الوجدان ، وبالنقد وحده لا يمكن التخلص منها ، اذ ان القضاء عليها لن يتم الا بأشكال حياة جديدة، بتسليات جديدة، وبتمثيليات جديدة تكون ارقى من حيث المستوى الثقافي. وهنا تتوجه الافكار من جديد وتلقائيا الىالوسيلة الاقوى شأنا ، لانها الاكثر ديمقراطية . تتوجه الى السينما . فالسينما لا

تحتاج الى مراتب كهنوتية متنوعة ، ولا الى البروكار ، الخ ، بل ان رقعة من القماش الابيض تكفي لخلق اجواء مسرحية اكثر جاذبية من تلك التي توفرها اغنى الكنائس والمعابد واكثرها خبرة بالتجارب المسرحية العريقة . فالكنيسة لا تقدم الا فصلا واحدا، يتكرر باستمرار ، في حين ان السينما كفيلة بان تبين بأنه في الجوار ، او في طرف الشارع الاخر ، تقام في يوم واحد ، بل في ساعة واحدة ، طقوس الفصح الوثني واليهودي والمسيحي . ان السينما تسلي ، وتثقف ، وتستحوذ على الخيال بالصور ، وتلغي الرغبة في الدخول الى الكنيسة . السينما منافس خطير لا للخمارة فحسب ، وانما للكنيسة ايضا . تلك هي الوسيلة التي يتوجب علينا السيطرة عليها والتحكم بها مهما كلف الامر .

( ٦ )

# من العائلة القديمة الى العائلة الجديدة

ان علاقات العائلة واحداثها الداخلية لا تخضع بسهولة، بحكم طبيعتها بالذات ، لدراسة موضوعية او لحساب احصائي. لذا يصعب القول الى اي حد باتت العلاقات العائلية اسهل قابلية للتفكك اليوم ( في الحياة وليس على الورق ) منها بالامس . ولا بد لنا ان نكتفي ، الى حد كبير في هذا المجال ، بما هو قابل لان يقع تحت النظر . والفارق بين المرحلة الراهنة ومرحلة ما قبل الثورة هو ان نزاعات ومآسي الاسرة العمالية كانت في الماضي لا تلفت انتباه احد ، حتى لدى جمهور العمال نفسه ، في حين ان حياة عدد كبير من العمال الطليعيين الذين يحتلون مناصب مسؤولية اضحت اليوم عرضة لانظار الجميع ، الامر الذي جعل من كل مأساة عائلية موضوع احكام ، بل موضوع ثرثرة واقاويل بكل بساطة .

لكن على الرغم من هذا التحفظ الهام يبقى ان العائلة ، بما فيها العائلة البروليتارية ، قد تعرضت لهزة قوية . هذا الواقع، الذي جرى التنويه به بوضوح خلال اجتماع محرضي موسكو ، لم

ينف من قبل اي كان . وقد طرحت المشكلة على نحو مختلف خلال النقاش : بعضهم تحدث عنها بضيق وقلـق ، وبعضهـم بتحفظ ، وبعضهم الاخر بحيرة وتردد . على كل حال ، كان واضحا بالنسبة الى الجميع اننا هنا بصدد سيرورة خطيـرة ، سديميـة تمامـا، واشكالها مرَضية احيانا ، ومنفرة احيانا اخرى ، مضحكة تـارة ومأساوية طورا ، سيرورة لم تفسح في المجال بعد امام ظهـور امكانيات النظام العائلي الجديد التي تنطوي عليها . والصحافة من جهتها نادرا ما تتعرض لظاهرة تفكك الاسرة . وقد طالعت ذات مرة مقالة جاء فيها انه ينبغي ان نرى فيتدهور الاسرة العمالية ظاهرة « تأثير البورجوازية على البروليتاريا » . ان تفسيرا كهذا خاطىء كليا . فالمشكلة اكثر عمقا واكثر تعقيدا . صحيح ان التأثير الماضي والحاضر للبورجوازية واضح جلي. لكن السيرورة الاساسية تكمن في تطور مَرَضي للاسرة البروليتارية التي تواجه وضعا متأزمـا، ونحن نشهد اليوم الظواهر الفوضوية الاولى لهذه السيرورة .

الجميع يعلم دور الحرب الهدام بالنسبة الى الاسرة .

ان فعل الحرب في هذا المجال ميكانيكي صرف ، فهي تفرق بين الناس لفترة طويلة منالزمن او تجمع بينهم عنطريق الصدفة. وقد اطالت الثورة تأثير الحرب وعززته . وقد هزت الحرب بشكل عام ركائز كل ما كان صامدا بقوة عطالـة التاريـخ ، اي النظـام القيصري والامتيازات الطبقية ، والعائلة القديمة . وقـد شيدت الثورة دولة جديدة ، وحلت بالتالي المشكلة الاكثر الحاحا والاكثر بساطة . اما على الصعيد الاقتصادي ، فان الامور كانت اكثـر تعقيدا . فالحرب كانت قد هزت دعائم النظام الاقتصادي القديم، فجاءت الثورة لتطيح به. ونحن اليوم نشيد شيئا جديدا ـ انطلاقا من الماضي حاليا ، ولكن من ماض اعدنا تنظيمه على نحـو جديد. والواقع اننا ، في مضمار الاقتصاد ، لم نتجاوز الا منذ فتـرة وجيزة مرحلة الدمار لنبدأ بالازدهار . ونجاحاتنا ما تزال ضئيلة، والطريق امامنا ما تزال طويلة لبلوغ اشكال الاقتصاد الاشتراكـي

الجديد . بيد اننا خرجنا من مرحلة الخراب والدمار . واكثر المراحل صعوبة واحراجا كانت خلال عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ .

وفيما يتعلق بنمط الحياة العائلي ، فان مرحلة الهدم لم تنته بعد ، اذ ما زلنا في قلب فترة التفكك والتصدع . ويجب ان نعي بوضوح تام هذه الظاهرة ، فعلى صعيد العلاقات العائلية ، نحن لا نزال ، ان صح التعبير ، في عامي ١٩٢٠ و١٩٢١ ، وليس على الاطلاق في عام ١٩٢٣ . ان نمط الحياة اكثر محافظة من الاقتصاد ، ولهذا السبب بالذات يصعب فهمه . ففي السياسة والاقتصاد تتحرك الطبقة العاملة ككل . لهذا السبب تبوىء طليعتها ــ الحزب الشيوعي ــ المرتبة الاولى ، وتحقق من خلاله مهامها التاريخية . اما في مضمار نمط الحياة ، فان الطبقة العاملة تتجزأ الى خلايا عائلية صغيرة . ان تحول السلطة ، وايضا تحول النظام الاقتصادي ( تملك الشغيلة للمصانع والمعامل ) يؤثران طبعا على الاسرة ، وانما من الخارج فقط ، وعلى نحو ملتو ، دون زعزعة عاداتها الموروثة مباشرة عن الماضي . ان تغيير نمط الحياة والاسرة يقتضي من الطبقة العاملة برمتها وعيا حادا للمشاكل وللجهود المطلوبة ، وهذا التغيير يفترض ، من الطبقة العاملة نفسها ، عملا تثقيفيا ضخما . فعلى المحراث ان يفلح الارض عميقا . فان نحقق المساواة السياسية بين المراة والرجل في الدولة السوفياتية ، فهذه مشكلة من ابسط المشكلات . وان نحقق المساواة الاقتصادية بين الشغيل والشغيلة في العمل والمصنع والنقابة ، فهذه مشكلة اصعب بكثير . اما ان نحقق المساواة الفعلية للرجل والمرأة داخل الاسرة ، فهذا ما هو في غاية التعقيد ، وهذا ما يقتضي بذل جهود هائلة لقلب نمط حياة رأسا على عقب . مع ذلك ، فانه لمن الواضح اننا لن نستطيع الكلام جديا عن مساواة الرجل والمرأة في الانتاج ، ولا حتى على الصعيد السياسي ، ان لم تتحقق هذه المساواة في الاسرة ، ذلك ان المرأة التي تستعبدها الاسرة ، والمطبخ ، والغسيل ، والخياطة ، تجد قدراتها على العمل في الحياة الاجتماعية وفي

التأثير على حياة الدولة قد تضاءلت وتقلصت الى ابعد الحدود.

لقد كان الاستيلاء على السلطة اسهل الامور وابسطها . بيد انه شغل قرانا كافة خلال مرحلة الثورة . وقد اقتضى منا تضحيات جسيمة . كذلك استلزمت الحرب الاهلية اجراءات تقشف صارمة. وقد ادانت العقول المبتذلة والبورجوازية الصغيرة وحشية الطبائع والسلوك ، والفساد الدموي للبروليتاريا ، الخ. لكن البروليتاريا في الواقع ، ومن خلال الاجراءات القسرية التي كانت تفرضها عليها الثورة ، كانت تكافح من اجل ثقافة جديدة، من اجل اخلاق انسانية حقيقية . وعلى الصعيد الاقتصادي، عرفنا خلال السنوات الاربع او الخمس الاولى من العهد ، مرحلة تدمير وتراجع تام في الانتاج . وقد رأى اعداؤنا في ذلك ، او بالاحرى ارادوا ان يروا في ذلك ، تفسخ النظام السوفياتي . لكن كل ما في الامر الواقع اننا كنا نمر بمرحلة التدمير التي لا مناص منها لاشكال الاقتصاد القديمة ، وبمرحلة المحاولات الواهنة الاولى لخلق بديل لها .

وفي مضمار الاسرة ونمط الحياة ، ثمة مرحلة ضرورية ايضا يتم فيها تصديع سائر الاشكال القديمة ، التقليدية ، الموروثة عن الماضي . غير ان فترة الازمة والتدمير هذه تأتي متأخرة اكثر، وتدوم اطول ، وتكون اشق واصعب ، مع ان اشكالها ، المجزأة الى اقصى حدود التجزئة ، لا تبدو دوما مرئية لمن يتفحصها على نحو سطحي . يجب ان نعي بوضوح هذه الصدوع في ميدان السياسة والاقتصاد ، وايضا في مضمار نمط الحياة ، وذلك حتى لا تخيفنا الظواهر التي نلمسها ، وحتى نقدرها على العكس حق قدرها، اي نفهم لماذا تظهر لدى الطبقة العاملة ، وحتى نؤثر عليها على نحو واع ومدرك وباتجاه تشريك اشكال نمط الحياة .

لكن حذار ان نفقد صوابنا ، وان كانت اصوات فزعة قد بدأت ترتفع هنا وهناك . خلال اجتماع محرضي موسكو ، اشار بعض الرفاق ، بقلق له ما يبرره ، الى السهولة الفائقة التي باتت

تتفكك بها اواصر الاسرة القديمة وتنعقد اواصر جديدة لا تفوق الاولى صلابة ومتانة . والام والاولاد هم الذين يكابدون بالدرجة الاولى من ذلك . من جهة اخرى ، من منا لم يسمع ذلك النغم المكرر حول « انحطاط » اخلاق الشبيبة السوفياتية ، ولا سيما شبيبة الكومسومول ؟ (١) صحيح ان هذه الشكاوى ليست مجرد تخريف ، فهي لا تخلو من اساس من الصحة . ونحن اذا ما نظرنا الى الامور من منظار نسبي ، وجدنا انه لا بد من النضال من اجل تنمية ثقافة الفرد وشخصيته . لكن لو طرحنا المشكلة على نحو سليم ، دون ان ننجر وراء نزعة اخلاقيةرجعية او سوداوية عاطفية لوجدنا انه ينبغي ، قبل اي شيء اخر ، ان نعرف الواقع وان نفهم ماذا يجري .

كما سبق وذكرنا ، ان احداثا بالغة الخطورة ـ الحرب والثورة ـ قد قلبت اوضاع نمط الحياة العائلي . وقد حملت معها الفكر النقدي ، واعادة التنظيم الواعية لعلاقات الاسرة ولنمط الحياة اليومي وتقييما جديدا لها . ان تضافر القوة الميكانيكية لهذه الاحداث الكبرى مع قوة الفكر النقدية هو ، على وجه التحديد ، ما يفسر في ميدان الاسرة مرحلة التدمير التي نعرفها اليوم . فالعامل الروسي بدأ اليوم فقط ، بعد استيلائه على السلطة ، يخطو خطواته الاولى على درب الثقافة . وتحت تأثير هزات عنيفة انعتقت شخصيته للمرة الاولى من الاشكال والعلاقات التي يفرضها الروتين ، والتقاليد ، والكنيسة . فهل من المستغرب ان تأخذ بادىء الامر ثورته الفردية على النظام القديم اشكالا فوضوية ، او بتعبير اكثر فظاظة ، اشكالا جامحة ، فالتة العنان ؟ لقد لاحظنا الشيء نفسه في السياسة ، في الاقتصاد وفي الجيش : فوضوية ـ فردية ، تطرف يساري من مختلف الانواع ، تعصب حزبي ، هوس المهرجانات الخطابية . هل من المستغرب اخيرا ان تجد هذه

(١) منظمة الشباب في الاتحاد السوفياتي . «م» .

السيرورة تعبيرها الاكثر حميمية ، وبالتالي الاكثر ايلاما ، في الاسرة ؟ هنا تضطر الشخصية المتحررة ، الراغبة في بناء حياتها على نحو جديد وليس على نحو تقليدي ، تضطر الى التأكيد على ذاتها عن طريق « الفجور » و « الرذيلة » وغيرها من الآفات التي اشير اليها خلال اجتماع موسكو .

فالزوج الذي تنتزعه التعبئة العامة من شروط حياته المألوفة، يصبح في الجبهة مواطنا ثوريا . انه يعيش ثورة داخلية عارمة. ويتوسع افقه وتسمو متطلباته الروحية وتصبح اكثر تعقيدا. وها هوذا قد اصبح انسانا اخر . ويعود الى اسرته . فاذا بكل شيء فيها قد بقي على حاله . فتضمحل الوحدة العائلية القديمة، لكن دون ان تقوم مكانها وحدة جديدة . ويتحول الاستغراب والذهول من الطرفين الى استياء، والاستياء الى غضب ، والغضب يؤدي الى الانفصال .

الزوج ، الشيوعي ، يعيش حياة اجتماعية نشطة ، فيتقدم ويجد فيها معنى حياته الشخصية . بيد ان الزوجة ، الشيوعية هي الاخرى ، تود بدورها المساهمة في عمل الجماعة ، فتشارك في الاجتماعات ، وتعمل في السوفييت او في النقابة . وتضمحل الاسرة شيئا فشيئا ، او تزول العلاقة العائلية الحميمة وتتزايد الخلافات ، الامر الذي يثير سخطا مشتركا ينتهي الى الطلاق .

وقد يكون الزوج شيوعيا، والزوجة لاحزبية. عندها ينشغل الزوج كليا بعمله الحزبي ، في حين تبقى الزوجة، كما في الماضي، اسيرة الدائرة العائلية . العلاقات بينهما تكون « مسالمة » ، اي قائمة على اساس من اللامبالاة المتبادلة . لكن قد يتقرر ، داخل الخلية ، ان يتخلص الرفاق من الايقونات التي هي في بيوتهم . ويعتبر الزوج ان الامر مفروغ منه . غير ان المسألة قد تتحول الى دراما حقيقية بالنسبة الى الزوجة . وتأتي هذه المشكلة الفجائية لتكشف عن الهوة الفكرية الشاسعة التي تفصل الزوج عن الزوجة. فتتأزم علاقتهما وينتهيان الى الانفصال .

لنتصور الان اسرة غير حديثة العهد ، تجمع بين الزوجين فيها حياة مشتركة تتراوح بين عشرة وخمسة عشر عاما . الزوج عامل مجد ، ووالد طيب القلب ، والزوجة تحب بيتها وتتفانى من اجل ذويها . وقد تشاء المصادفة ان تتصل بمنظمة نسائية. وعندئذ ينفتح عالم جديد امامها وتجد فيه مجال عمل ارحب بكثير لانفاق طاقاتها . لكن في العائلة ، يكون الانهيار . فالزوج يغضب، والزوجة تعتبر نفسها قد اهينت في كرامتها كمواطنة . وينتهي الامر الى الطلاق .

نستطيع ان نضاعف الى ما لا نهاية عدد المآسي العائلية هذه التي تؤدي دوما الى النتيجة اياها ـ الى الطلاق . بيد اننا اكتفينا هنا بالاشارة الى الامثلة الاكثر رواجا . والقاسم المشترك بينها هو خط الفصل ذاك بين العناصر الشيوعية والعناصر اللاحزبية. غير ان انحطاط الاسرة ( الاسرة القديمة ) لا ينحصر فقط بالعناصر الطليعية للطبقة العاملة ، الاكثر تحسسا بالظروف الجديدة، فهو يذهب الى اعمق من ذلك بكثير . كل ما في الامر ان الطليعة الشيوعية تجرب قبل غيرها ، وعلى نحو اكثر حدة ، ما ستعاني منه بهذا القدر او ذاك من الحتمية الطبقة برمتها. وهذه الظواهر ـ اعادة النظر في الحياة الشخصية ، متطلبات جديدة على صعيد الاسرة ـ تتجاوز طبعا جدود مجال اتصال الحزب الشيوعي بالطبقة العاملة . وما كان اقرار الزواج المدني الا ليسدد ضربة قاصمة للاسرة القديمة المكرسة من قبل الكنيسة ، والتي لم تكن اكثر من واجهة . وكلما كانت العلاقات واهنة ، كانت وحدة الاسرة تقتصر على المظهر الخارجي ، اليومي ، والطقسي الى حد ما ، لتلك العلاقات . وبالقضاء على الطقوس ، تم في الوقت نفسه تسديد ضربة قاسية الى الاسرة . فالطقوسية ، الخالية من كل مضمون موضوعي ، والمفتقرة الى اعتراف الدولة بها ، ما عادت تحافظ على نفسها الا بقوة عطالتها ، وهي تستخدم كعكاز للاسرة التقليدية . لكن ان لم تتوفر العلاقات المتينة داخل الاسرة نفسها،

وان كان تماسك هذه الاخيرة لا يعتمد الا على قوة العطالة والجمود، فان كل ضربة توجه اليها من الخارج قادرة على تحطيمها بالقضاء على طابعها الطقسي . والواقع ان الضربات التي تتلقاها الاسرة في عصرنا هذا قد فاقت كل ما نالته حتى الان . لهذا نراها تترنح، ولهذا نراها تتصدع وتتساقط ، ولهذا نراها تعيد تكوينها من جديد لتتفكك مرة اخرى ومن جديد . وقد خضع نمط الحياة لتجربة قاسية نتيجة هذا النقد الصارم والمؤلم للاسرة . لكن « لا يمكن صنع عجة من دون كسر البيض » كما يقول المثل .

هل نشهد ظهور عناصر اسرة من طراز جديد ؟ دون ادنى شك .

بيد انه يجب ان نكون لانفسنا فكرة واضحة عن طبيعة هذه العناصر وعن طريقة تكونها . وينبغي ان نميز هنا ، اسوة بما نفعل في ميادين اخرى ، بين الشروط المادية والشروط النفسية ، او بالاحرى الشروط الذاتية . على الصعيد النفسي ، فان ظهور اسرة من طراز جديد وعلاقات انسانية جديدة يساوي بالنسبة الينا ، بشكل عام ، التقدم الثقافي للطبقة العاملة ، وتطور شخصيتها ، وتحسن حاجاتها وانضباطها الداخلي . من وجهة النظر هذه فان الثورة تشكل ، بحد ذاتها ، خطوة جبارة الى الامام، والظواهر المكدرة لتفكك الاسرة ليست سوى تعبير مؤلم عن يقظة الطبقة العاملة وتفتحها . لذا فان مجمل عملنا الثقافي – العمل الذي نقوم به ، وبخاصة الذي يتوجب علينا القيام به – يجب ان يخدم قضية اقامة اسرة وعلاقات من طراز جديد . لكن هذه الاسرة الجديدة العليا ، لن ترى النور ما لم يتم تحسين السوية الثقافية الفردية للعامل وللعاملة ، ذلك انه في هذا المجال لا بد من الاعتماد على الانضباط الداخلي وحده، اذ ليس ثمة مكان للاكراه الخارجي . وتتحدد قوة هذا الانضباط الشخصي بالحياة التي يعيشها الزوجان داخل نطاق الاسرة، وبمجمل العلاقات التي تجمع بينهما، وبطبيعتها .

مرة اخرى نعود فنقول ان شروط ظهور نمط حياة جديد واسرة من الطراز الجديد لا يمكن ان تنفصل عن مهمة البناء العام للاشتراكية . لذا ينبغي ان تغتني الحكومة العمالية حتى يصبح في مقدورها ان تنظم ، على نحو جدي ومتكامل ، تربية الاطفال الجماعية ، وان تحرر الاسرة من الطبخ والغسيل . وتشريك الاقتصاد العائلي وتربية الاطفال يبقى غير وارد ما لم يغتن اقتصادنا برمته . فنحن بحاجة الى التراكم الاشتراكي . بهذا الشرط فقط نستطيع ان نحرر الاسرة من الوظائف والمشاغل التي ترهقها وتحطمها . الغسيل مثلا يجب ان يرسل الى مغسل جماعي . ووجبات الطعام يجب ان تؤخذ في مطعم جماعي جيد . والثياب يجب ان تفصل في ورشة عمل . اما الاولاد فيشرف على تربيتهم اخصائيون ممتازون ينحصر عملهم في ذلك . عندها لن يعيق علاقات الزوج والزوجة ما هو خارجي عنها ، ما هو زائد وفائض ، وعابر . ويكف كل منهما عن تنغيص حياة الاخر . عندها فقط نشهد ظهور مساواة فعلية في الحقوق . وتمسي الروابط متحددة بالانجذاب المتبادل فقط . ولهذا السبب بالذات تصبح هذه الروابط اكثر متانة ، مختلفة طبعا بالنسبة للزوجين ، ولكن لا اثر للاكراه فيها .

ثمة طريق مزدوجة اذن تقود الى الاسرة الجديدة : ا ــ تربية الطبقة وتربية الفرد في الطبقة ، ب ــ الاغتناء المادي للطبقة التي تشكل الدولة . وهاتان الاواليتان وثيقتا الارتباط فيما بينهما .

ان ما تقدم قوله لا يعني على الاطلاق انه في لحظة محددة من التطور المادي ستظهر الى حيز الوجود على نحو مفاجىء وفوري هذه الاسرة الجديدة . كلا ، فتكوّن العائلة الجديدة ممكن منذ الان. صحيح ان الدولة لا تستطيع بعد التعهد بتربية الاطفال الجماعية ، وبانشاء مطابخ جماعية تكون افضل من المطابخ العائلية، وبايجاد مغاسل جماعية لا يتعرض فيها الغسيل للتمزيق والسرقة. لكن هذا لا يمنع الاسر الاكثر تقدمية من ان تبادر الى التجمع منذ

الان على اساس جماعي . لا ريب في ان تجارب كهذه لا بد ان تتم بحذر شديد كي تتناسب الوسائل التقنية للتنظيم الجماعي مع مصالح ومتطلبات المجموعة ، وكي تحقق لسائر اعضائها فوائد واضحة ، وان تكن ضئيلة في المراحل الاولى .

حول اعادة بناء نمط حياتنا العائلي ، كان الرفيق سماشكو (٢) قد كتب قبل فترة من الزمن: «يجب ان نقرن الكلمة بالفعل ، اذ لن نحصل على شيء يذكر فيما لو اكتفينا بتسجيل المواقف او بالعمل الدعائي . فان برهانا واحدا ، تجربة واحدة، يمارسان تأثيرا اقوى من الف كراس متقن الكتابة، والوسيلة المثلى لانجاح هذه الدعاية هي استخدام تلك الطريقة التي يطلقون عليها اسم « اعادة الزرع » في ميدان العمل الجراحي . فعندما ينسلخ الجلد عن مساحة كبيرة من الجسم (نتيجة جرح او حرق) وعندما يتلاشى الامل في ان يغطي الجلد من جديد هذه المساحة ، يلجأ الجراحون الى قص قطع من الجلد من موضع سليم من الجسد والى الصاقها بالموضع المسلوخ ، وينزرع الجلد وتمتد رقعه الصغيرة وتكبر الى ان تغطي تماما المساحة المنزوع جلدها .

« وسوف تتم الامور على نحو مماثل مع هذه الدعاية الاثباتية: فاذا ما جرى تبني نمط الحياة الشيوعي في معمل او مصنع ما، فان منشآت اخرى ستسير على هذا المنوال » . ( **اخبار اللجنة المركزية** ، العدد رقم ٨ ، ٤ نيسان ١٩٢٣ . ن. سماشكو : **الميت يقبض على الحي** ) .

ان تجربة هذه الجماعيات العائلية التي تشكل محاولة تقرب اولية ، وان ناقصة ، من نمط الحياة الشيوعي ، يجب ان تخضع لدراسة ولتحليل دقيقين . والسلطة مطالبة ، قبل سائر المجالس والمؤسسات الاقتصادية ، بتقديم دعمها لهذه المبادرات الجزئية.

---

**(٢) سماشكو نيقولا الكسندروفيتش ( ١٨٧٤ ـ ١٩٤٩ ) : مفوض الشعب الاول للصحة العامة . طور الطب الوقائي وسياسة الدفاع عن الام والطفل . «م» .**

فبناء المساكن مثلا ـ ذلك انه لا بد ان نباشر اخيرا ببناء البيوت! ـ يجب ان يخطط له وفق مقتضيات المجمعات العائلية . فالنجاحات الاولى ، الواضحة والاكيدة ، في هذا المجال من شأنها ان تحفز لا محالة شرائح اوسع على تنظيم نفسها على نحو مماثل . اما فيما يتعلق بمبادرة مخطط لها وآتية من فوق، فان الامور لم تنضج بعد بما فيه الكفاية ، لا من حيث طاقات الدولة المادية ، ولا من حيث استعداد البروليتاريا نفسها . وحاليا لا يمكن لهذه القضية ان تنطلق الا بانشاء مجمعات تجريبية . فالثقة بالنفس لن تأتينا الا بالتدريج ، اي دون ان نجازف بالاندفاع الى ابعد مما ينبغي وبالسقوط بين براثن البيروقراطية العجيبة الغريبة . اما الدولة فستتكفل بهذه القضايا عندما يحين الاوان ، بواسطة المجالس المحلية ، والتعاونيات ، الخ ، فتعمم العمل الذي يكون قد تم انجازه وتطوره وتعمقه . بهذه الطريقة ستنتقل البشرية ، كما يقول انجلز ، « من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية » .

(٧)

# الاسرة والطقوس

ثمة لحظات ثلاث اساسية وطقوسية في حياة الانسان والاسرة ، تتوسل بها الكنيسة لتشد العامل الى غلها ، حتى ولو كان غير مؤمن او ضعيف الايمان ، وهي : الولادة ، والزواج، والوفاة . وقد حادت الحكومة العمالية عن طقوسية الكنيسة، وشرحت للمواطنين ان لهم كل الحق في ان يولدوا ، ويتزوجوا، ويموتوا دون اللجوء الى الشعائر السحرية لاولئك الذين يرتدون المسوح او غيرها من الملابس الكهنوتية . بيد ان التخلي عن الطقوس اصعب بكثير بالنسبة الى نمط الحياة منه الى الحكومة . فحياة الشغيلة رتيبة اكثر مما ينبغي ( متماثلة اكثر مما ينبغي)، ورتابتها وحدها كفيلة بانهاك الجهاز العصبي . من هنا الحاجة الى الكحول: ففي زجاجة صغيرة عالم من الصور . ومن هنا ايضا الحاجة الى الكنيسة بطقوسيتها . فكيف يحتفل بزواج او بميلاد داخل الاسرة؟ كيف يكرم قريب لاقى حتفه ؟ هذه الحاجة الى التأكيد على مراحل الحياة الرئيسية ، الى الاحتفال بها وتجميلها ، هي الركيزة التي

تعتمد عليها طقوسية الكنيسة .

لكن بمَ نواجهها ؟ صحيح اننا نقابل الخرافات التي هي قاعدة الطقوسية بالنقد الماركسي ، وبعلاقة موضوعية بالطبيعة وقواها. بيد ان هذا الاعلام العلمي والنقدي لا يحل المشكلة : فهو اولا لم يطل بعد ـ ولن يطال لفترة طويلة من الزمن ـ سوى اقلية من الناس ، وهذه الاقلية ، ثانيا ، تشعر هي الاخرى بحاجة الى تجميل ، وترقية ، وتعظيم حياتها الشخصية ، في اللحظات الهامة على الاقل .

لقد باتت للدولة العمالية اعيادها ، ومواكبها، واستعراضاتها العسكرية ، واحتفالاتها ، وعروضها الرمزية ، وابهتها المسرحية. صحيح ان هذه الاخيرة تذكر الى حد بعيد بمسرحية الماضي، وتقلدها ، بل لا تعدو احيانا ان تكون استمرارا لها . غير ان جوهر الرموز الثورية جديد ، واضح وقوي : العلم الاحمر ، المنجل والمطرقة ، النجم الاحمر ، العامل والفلاح ، الرفيق ، والاممية . والحال ان هذه الرموز الجديدة تكاد تكون منعدمة الوجود داخل الخلية العائلية المنطوية على ذاتها ، او على الاقل ضعيفة التأثير. علما بان حياة الفرد مرتبطة على نحو وثيق بحياة العائلة . هذا ما يفسر ان الغلبة في الاسرة ، على صعيد العلاقات اليومية ، هي للعناصر الاكثر محافظة ، فهي تبقي على الايقونات ، وعلى العماد، وعلى المآتم الدينية ، لان العناصر الثورية في الاسرة لا تجد ما تعارضها به . فالحجج النظرية لا تؤثر الا على العقل ، في حين ان الطقوسية المسرحية تؤثر على المشاعر والمخيلة، وتأثيرها بالتالي اعظم بكثير . لذلك ينبغي ، حتى في الوسط الشيوعي نفسه، معارضة هذه الطقوسية القديمة باشكال جديدة ، برموزية جديدة، وذلك لا على الصعيد الرسمي فحسب حيث تأصلت على نحو واسع ، وانما ايضا على صعيد الاسرة . فثمة نزعة لدى العمال للاحتفال بعيد الميلاد ، لا بعيد القديس ، ولاعطاء الطفل الوليد ، لا اسم قديس ، بل اسما جديدا يرمز الى وقائع واحداث او افكار

قريبة منهم . لقد علمت للمرة الاولى مثلا ، اثناء اجتماع محرضي موسكو ، ان اسم اكتوبرين قد اصبح شائعا بالنسبة الى الفتيات. وقد ذكر كذلك اسم نينيل ( لينين بالمقلوب ) وريم ( اسم مركّب من الاحرف الاولى لكلمات ثورة وكهرباء وسلم في الروسية ) . وقد بات الناس ، تأكيدا منهم على تعلقهم بالثورة وارتباطهم بها، يطلقون على اولادهم اسماء فلاديمير ، وايليتش ، بل لينين ايضا . وكذلك روزا ( اكراما لروزا لوكسمبورغ ) الخ . في بعض الاحيان يعقب الولادة طقس لا يخلو من روح دعابة : فلجنة المعمل تتولى« فحص» الوليد ، ثم تحرر « بيانا » تؤكد فيه ان الوليد اصبح مواطنا سوفياتيا . بعد ذلك ينتقل الجميع الى مائدة الطعام .

ان دخول الطفل الى المدرسة قد يكون في بعض الاحيان مناسبة احتفال لدى الاسر العمالية . وهذا حدث هام للغاية في الواقع ، لانه يرتبط باختيار مهنة ، وخط في الحياة . ويمكن ان تتدخل النقابة هنا بروية ، ذلك ان النقابات على وجه التحديد هي التي ستشرف ، في المرتبة الاولى ، على خلق وتنظيم اشكال نمط الحياة الجديد . لقد كانت اخويات القرون الوسطى عظيمة الشأن ، لانها كانت تطوي تحت جناحيها حياة التلميذ والمتمرن والمعلم . فقد كانت تهتم بالطفل منذ لحظة ولادته ، ثم تقوده الى امام المذبح يوم قرانه، ثم تدفنه عندما ينتهي من انجاز مهمته. ولم تكن الاخويات تقصر عملها على تجميع اهل المهنة الواحدة ، بل كانت تنظم نمط الحياة برمته . ان نشاط نقاباتنا سيتطور في هذا الاتجاه على الارجح ، مع فارق اكيد : فان نمط الحياة الجديد، بخلاف نمط حياة القرون الوسطى ، سيكون متحررا تماما من الكنيسة وخرافاتها ، وقائما على الرغبة في استغلال كل فتح علمي وتقني لاغناء حياة الانسان وتجميلها .

ان الزواج قد يستغني بسهولة اكبر عن الاحتفالات علما بان حالات عديدة من « سوء التفاهم » والفصل من الحزب قد وقعت بسبب عقد القرانات في الكنيسة . ذلك انه يصعب على نمط

الحياة التكيف مع الزواج البسيط الذي لا تجمله اي ابهة مسرحية .

لكن يبقى الدفن مصدر المتاعب الاعظم . فان دفن ميت دون تلاوة صلاة عليه شيء غير مألوف ، غريب ومخجل كتنشئة طفل لم يعمد . وفي الحالات التي يرتدي فيها المأتم طابعا سياسيا، بسبب مكانة الميت ، فان طقوسية جديدة ، مسرحية ، مشبعة بالرموز الثورية ، بدات تفرض نفسها : الاعلام الحمر تعلق، والنشيد المأتمي الثوري يعزف ، والرصاص يطلق حزنا على الراحل . لقد نوه بعض المشاركين في اجتماع موسكو باهمية الترميد ، واقترحوا ، على سبيل المثال ، حرق جثث الثوريين البارزين ، الامر الذي من شأنه ان يشكل وسيلة كفاح قوية ضد الكنيسة . لكن الترميد ، الذي آن الاوان اللجوء اليه ، لا يعني التخلي عن المواكب ، والخطب ، والالحان المأتمية والرشقات النارية . فالحاجة الى التعبير عن المشاعر حاجة قوية ومشروعة.

اذا كانت الابهة المسرحية لنمط الحياة وثيقة الارتباط بالكنيسة في الماضي ، فهذا لا يعني على الاطلاق ان الفصل بينهما امر مستحيل كما سبق ان اشرنا الى ذلك . فالفصل بين المسرحية والكنيسة قد حصل في الواقع قبل الفصل بين الكنيسة والدولة. لقد حاربت الكنيسة ، في العصور الاولى ، المسرح «العمومي» لانها كانت تعتبره عن حق منافسا خطيرا لعروضها المسرحية. وان كان المسرح قد بقي على قيد الحياة فانما كعرض خاص ، سجين اربعة جدران . اما على صعيد الحياة اليومية ، فان الكنيسة قد احتفظت ، شأنها في الماضي ، باحتكار الاخراج المسرحي . ولقد نافستها في هذا المضمار بعض الجمعيات السرية كالماسونية . غير انها كانت هي الاخرى مشبعة الى اقصى حد بنوع من المظهرية التقوية الدنيوية . بامكاننا خلق « طقوسية » ثورية على مستوى نمط الحياة ( نستخدم كلمة «طقوسية» لعدم توفر عبارة افضل)، ومحاربة طقوسية الكنيسة بواسطتها ، لا فيما يتعلق بالاحداث

الجماعية الطابع فحسب ، وانما الاحداث العائلية ايضا . فالاوركسترا التي تعزف لحنا مأتميا تستطيع في معظم الاحيان ان تنافس القداس . وعلينا بكل تأكيد ان نستغل هذه الاوركسترا لنحارب طقوسية كنيسة قائمة على اساس ايمان خانع بعالم اخر، عالم يعوضنا بمئات الاضعاف عما عانينا من شر الدنيا وبؤسها. وستكون السينما اعظم فائدة ايضا بالنسبة الينا في هذا المضمار.

نمط الحياة هذا، والابهة المسرحية الجديدة هذه، لن يتطورا الا بالتوازي مع تقدم محو الامية والرفاهية المادية . عديدة هي الاسباب التي تحثنا على مراقبة هذه الاوالية بفائق الاهتمام . ولا بد من ان نستبعد اولا فكرة تدخل قسري آت من فوق ، اي بقرطة الظواهر الجديدة لنمط الحياة . فوحده الخلق الجمالي للجماهير العريضة ، يؤازره ابداع الفنانين وخيالهم الخلاق ومبادراتهم، قادر على ان يقودنا بالتدريج ، خلال السنوات والعقود القادمة، على طريق اشكال الحياة الجديدة ، الاكثر نبلا وروحية ، والمشبعة بالابهة المسرحية الجماعية . وعلينا ، منذ الان ، ان نسخر سائر الوسائل لمساعدة هذه السيرورة الخلاقة على التطور والنمو ، دون ان نعمد مع ذلك الى تنظيمها وضبطها . ومن اجل ذلك لا بد ان نبدأ باعادة النظر الى هذا الاعمى الذي هو نمط الحياة . يجب ان ندرس بتأن كل ما يجري في الاسرة العمالية ، وفي الاسرة السوفياتية عامة . فكل جديد ، كل جنين ، او حتى كل اشارة الى هذه الاشكال الجديدة، يستحق ان يرد ذكره في الصحف وان يطلع عليه الجميع ، بغية ايقاظ الاهتمام والخيال الخلاق واعطاء دفع جديد لعملية الخلق الجماعي لنمط الحياة الجديد .

وهذه مهمة الكومسومول في المرتبة الاولى . صحيح ان كل ما نكون قد تخيلناه او باشرنا بتحقيقه لن يعطينا نتيجة نهائية بالضرورة . لكن اي شر في ذلك ؟ فالخيارات لا بد ان تتم بالتدريج . والحياة الجديدة ستوجد الاشكال التي تناسبها. وبالاجمال ستكون اغنى ، وافضل ، وارحب ، واجمل وازهى. وذلك هو على وجه التحديد لب المشكلة .

( ٨ )

# المجاملة والتهذيب

# كشرطين ضروريين لعلاقات منسجمة

خلال احدى جلساتنا النقدية العديدة نوه الرفيق كيسليف، رئيس السوفناركوم ، او على الاقل ذكّرنا بجانب بالغ الاهمية من قضية جهاز الدولة . وكان المطلوب معرفة كيف وباي طريقة يتصل هذا الجهاز بالناس ، كيف « يناقش » معهم ، كيف يستقبل الزوار « المشتكين » ، والملتمسين ، كيف ينظر اليهم ، كيف يحدثهم ، وهل يعقد الحوار معهم في سائر الظروف ... فذلك ايضا جانب هام لـ « نمط الحياة » .

من جهة اخرى ينبغي التمييز هنا بين امرين : الشكل والمضمون .

في سائر الانظمة الديمقراطية المتحضرة تكون البيروقراطية « في خدمة » الشعب طبعا ، وهذا لا يمنعها من ان تشكل ، فوق

الشعب ، طبقة مهنية مغلقة وثيقة التلاحم . واذا كانت البيروقراطية « تقدم » فعلا « خدماتها » الى وجهاء الراسمالية وعظمائها ، اي تزحف امامهم ، فهي بالمقابل تقف موقف التعالي والازدراء تجاه الفلاح والعامل ، وتعاملهما وكأنهما اشياء ( هذا صحيح بالنسبة الى فرنسا واميركا وسويسرا على حد سواء ) . لكن هنالك ، في الديمقراطيات « المتحضرة » ، يتم تغليف ذلك بالتهذيب واللطف ــ وقد يكون هذا الغلاف اوضح في بلد ، واقل ظهورا في اخر . لكن كلما اقتضت الحاجة ( وقد يحصل ذلك يوميا ) ، فان قبضة الشرطي تفقأ بلا اي صعوبة حجاب التهذيب هذا . ففي مراكز الشرطة في باريس ونيويورك وغيرها من المدن الكبرى يتعرض المضربون عن العمل للضرب . وبالاجمال ، فان التهذيب « الديمقراطي » ، الرسمي ، والذي يوجه علاقات البيروقراطية مع الشعب هو نتاج الثورة البورجوازية ونتيجتها: فاستغلال الانسان للانسان ما يزال قائما ، لكن شكله هو الذي تغير ، فقد اضحى اقل « فظاظة » ، وتلفح بمظاهر المساواة، وتدثر ببريق حسن السلوك واللياقة .

ان جهاز البيروقراطية السوفياتية معقد على نحو خاص، فهو يحمل في طياته عادات عصور مختلفة ، وكذلك بذور العلاقات الانسانية المستقبلية . التهذيب ، بشكل عام ، منعدم الوجود عندنا . بالمقابل ، لدينا اكثر من حاجتنا بكثير من تلك الفظاظة الموروثة عن الماضي . لكن هنا ايضا لا تكون الفظاظة دوما واحدة. فهنالك الفظاظة المحضة ، فظاظة الموجيك (١) ، انها تفتقر طبعا للنعومة ، غير انها لا تجرح ولا تذل . هذه الجلافة تصبح لا تطاق، وموضوعيا رجعية ، عندما يستخدمها ادباؤنا الشباب لتحقيق فتح « فني » مزعوم . والشغيلة الطليعيون يعادون حتى النهاية هذا الضرب من الجلافة الكاذبة ، لانهم يرون عن حق في جلافة الكلام

---

**(١) الموجيك : الفلاح الروسي الفقير «م» .**

والسلوك بقايا عبودية ، ويرغبون في ان يجعلوا من لغة الثقافة، مع ما تفرضوا من اكراهات ، لغتهم . لكني اقول ذلك عابرا ...

الى جانب هذه الفظاظة التبسيطية ، غير المتميزة، الفلاحية، والسلبية اذا ما صح التعبير ، هنالك جلافة « ثوريـة » خاصة ـ جلافة الطليعة ـ الناجمة عن التململ ونفاذ الصبر ، عن التحرق الى القيام بما هو افضل ، عن الغيظ الذي تثيره في نفسها نزعتنا « الاوبلوموفية (٢) » ، وايضا عن التوتر العصبي . هذه الجلافـة بحد ذاتها تفتقر هي الاخرى طبعا الى النعومة ، ونحـن نحاربهـا. لكنها في الواقع غالبا ما تنهل من ذلك الينبوع الثوري الذي حرك الجبال من مكانها اكثر من مرة خـلال الاعـوام الاخيـرة . وليس المطلوب هنا تغيير جوهر الامور ، لانه سليم في معظـم الاحيان، وانما فقط شكلها القاسي والجلف ...

لكن عندنا ايضا ـ وهنا نقطة ضعفنا ـ نمطـا اخـر مـن الجلافة، جلافة سلفية ، جلافة الغني ، النبيل ، التي تأتينا مـن ايام العبودية والمشبعة بدناءة كريهة . هذه الجلافة لم تختف بعد، وليس من السهل التخلص منها . في مؤسسات موسكو، ولا سيما الهامة منها ، لا يظهر تعالي السيد هذا بشكله الصدامـي ـ فليس من يزعق ويلوح بيديه امام مقدمي الالتماسات ـ لكنه يأخذ فـي معظم الاحيان مظهر النزعة الشكلية اللاانسانية . وان لم تكن هذه النزعة المصدر الوحيد « للبيروقراطية والبطء الاداري » ، فهـي واحد من عواملها الاساسية : لامبالاة مطلقة بالافراد وبعملهم . ولو كان بامكاننا ان نسجل على شريط حساس للغايـة الاستشارات، والاجوبة ، والشروح ، والاوامر ، والتوجيهات التـي تعطى فـي سائر دوائر مؤسسة بيروقراطية في موسكو خلال يـوم واحـد، لحصلنا على مجموعة من الوثائق الدامغة ، والامر اسوأ بعـد فـي

---

(٢) الاوبلوموفية : كلمة مشتقة من اسم بطل رواية غونتشاروف « اوبلوموف »، نموذج الكسول الذي يعي كسله ولكن يعجز عن التغلب عليه «م» .

الاقاليم ، وبخاصة حيث تتصل المدينة بالريف .

ان النزعة البيروقراطية ظاهرة بالغة التعقيد ، غير متجانسة على الاطلاق . انها في الواقع تركيبة من الظواهر ، من الاواليات العديدة التي ظهرت في لحظات تاريخية مختلفة. والاسباب التي تعزز وتغذي البيروقراطية متنوعة بدورها. ويحتل جهلنا ، وتخلفنا ، وغباوتنا مكانة الصدارة بينها . والاختلال العام لجهازنا الحكومي ، الذي يعاد بناؤه باستمرار ( وهذا امر محتم في المرحلة الثورية ) ، يتسبب في خلق خلافات عديدة تساعد على نمو النزعة البيروقراطية . وفي هذه الظروف ، على وجه التحديد ، يبرز التنافر الاجتماعي للجهاز السوفياتي ، وبخاصة عاداته المولوية والبورجوازية ، في ابشع اشكالها واكثرها تنفيرا .

من هنا فان النضال ضد النزعة البيروقراطية لا بد ان يرتدي بدوره طابعا متنوعا . في البداية يجب الانطلاق من محاربة الجهل ، والغباوة ، والقذارة والبؤس. ان التحسين التقني للجهاز البيروقراطي ، وضغط الكوادر ، والمزيد من الدقة والصرامة والانتظام في العمل ، وغيرها من الاجراءات التي هي من هذا القبيل ، امور قد لا تحل المشكلة التاريخية للنزعة البيروقراطية، غير انها تسمح بالمقابل بالتخفيف من حدة اكثر مظاهرها سلبية. ان تكوين «بيروقراطية» سوفياتية من طراز جديد ، وتأهيل « الاخصائيين » ، شيء بالغ الاهمية . وبالمناسبة ، يستحسن الا نقلل ، في هذه المرحلة الانتقالية ــ نظرا الى العادات الموروثة عن الماضي ــ من صعوبة تأهيل عشرات الآلاف من الشغيلة الجدد على اسس جديدة ، اي بروح حس العمل ، والبساطة ، والانسانية. انها مهمة صعبة ، لكنها ليست مهمة مستحيلة ، كل ما في الامر انها لن تنجز دفعة واحدة ، وانما بالتدريج ، وبفضل تخريج « دفعات » افضل فافضل من الشغيلة السوفييت الشباب .

هذه الاجراءات المفروض تطبيقها على المدى البعيد لا تلغي بأي حال ضرورة كفاح مباشر ، يومي ، وشرس ضد تلك الوقاحة

البيروقراطية ، ضد الازدراء الاداري بالفرد وبشؤونه ، ضد عدمية البيروقراطي التي تخفي اما لامبالاة مطلقة تجاه سائر الامور، واما جبنا وعجزا عن الاعتراف بالقصور، واما رغبة واعية في التخريب، واما ايضا حقدا عضويا للطبقة المخلوعة على الطبقة التي طردتها من مكانها . وهنا تكمن احدى نقاط الارتكاز الاساسية لعتلة الثورة.

يجب ان يكف الانسان البسيط ، الشغيل الوضيع ، عن التخوف من المؤسسات الادارية التي قد يلجأ اليها احيانا ، وعن التهيب منها . وبقدر ما يكون مدقعا اي نكرة وجاهلا، تكون هذه المؤسسات مطالبة بايلائه المزيد من الاهتمام والرعاية . المطلوب منها العمل على مساعدته لا التخلص منه . ومن اجل ذلك لا بد، الى جانب سائر الاجراءات الاخرى ، من اطلاع الراي العام باستمرار على المشكلة ، واشراكه فيها على اوسع نطاق ، ولا بد بشكل خاص من ان تحظى هذه المشكلة باهتمام سائر العناصر السوفياتية الصادقة ، الثورية ، والشيوعية . وهذه العناصر عديدة لحسن الحظ : ان جهازالدولة يرتكز اليها ، وهو يتقدم بفضلها .

« تستطيع الصحافة ان تلعب في هذا المضمار دورا حاسما للغاية .

لكن صحفنا مع الاسف لا تقدم بشكل عام الا مواد تربوية محدودة للغاية فيما يتعلق بنمط الحياة . واذا ما اوردت خبرا فانما على شكل تقارير رتيبة في معظم الاحيان . فقد نطالع فيها مثلا : يوجد مصنع ، المصنع الفلاحي ، ولهذا المصنع لجنة ومدير: اللجنة تقوم بعملها كلجنة ، والمدير يقوم بعمله كمدير ، الخ. علما بان حياتنا تعج بالاحداث ، والنزاعات ، والتناقضات الظاهرة، ذات الفائدة التعليمية ، وبخاصة في المجالات التي يتصل فيها جهاز الدولة بالشعب . والمطلوب فقط من صحفيينا ان يشمروا بشجاعة عن سواعدهم ويباشروا بالعمل ...

من نافل القول ان عمل التثقيف والكشف عن الحقائق هذا لا

بد ان يأتي بريئا تماما من كل نميمة ودسيسة واتهـام مجانـي لا اساس له من الصحة ، ومن كل تلاعب وديماغوجية . هذا العمل ضروري وحيوي ، شرط ان ينفـذ علـى نحـو صحيـح ، وعلـى المسؤولين في الصحف، في نظري، ان ينظروا في طرق انجازه. اننا نحتاج ، من اجل ذلك ، الى صحفيين يجمعون بين الحذاقـة الاميركية والنزاهة السوفياتية . وهذا النـوع مـن الصحفييـن موجود عندنا . وسوف يساعدنا الرفيق سوسنوفسكـي علـى تعبئتهم . وعلى مذكرات مهماتهم يجب ان تكتب العبارة التاليـة ( دون ان يكونوا امثال قوزما بروتكوف ) : اذهب الى نهاية الامور!

ويمكن ان تأخذ « رزنامة » كفاحنا الشكـل التالي : اذا ما استطعنا ، خلال الاشهر الستة القادمة ، ان نفضح ـ بدقة ونزاهة وبعد التأكد مرتين او ثلاثا من صحة اقوالنا ـ ما يقارب من مئـة بيروقراطي يدللون على ازدراء مطلق بجماهير الشغيلة ، واذا مـا فصلنا هؤلاء البيروقراطيين عن جهاز الحزب وقطعنا عليهم طريق العودة اليه ، وذلك بعد ان نكون قد كشفنا امرهم في سائر ارجاء البلاد ، بل اقمنا لهم محاكمة علنية ، فهذه ستكون بداية حسنـة دون ادنى ريب . يجب الا نتوقع المعجزات السريعة طبعا . لكـن عندما يكون الامر متعلقا باحلال الجديد مكان القديم ، فان للخطوة الصغيرة الى الامام قيمة اكبر من اطـول المناقشات واكثرهـا اسهابا .

( ٩ )

# يجب ان نناضل من اجل تهذيب اسلوبنا

لقد تقرر ، خلال اجتماع عام في مصنع احذيـة « كومونـة باريس » ، وضع حد لفظاظة الاسلوب ومعاقبة الذين يتلفظـون بـ « كلمات نابية » ، الخ .

بالمقارنة مع « كلمات » اللورد كورزون (١) ، الذي لا نستطيع بعد ان ننزل به عقابا ، فان القرار الذي اتخذته الجمعيـة العامـة لمصنع الاحذية قد لا يعدو كونه حدثا صغيرا في دوامة عصرنا، بيد انه حدث له دلالاته . ولن يأخذ كامل اهميته الا بمقدار ما تخلفـه هذه البادرة من اصداء .

ان جلافة الاسلوب ـ الجلافة الروسية بشكـل خـاص ـ

(١) اللورد كورزون : ديـلوماسي بريطاني كان من بين منظمي التدخل المسلـح ضد الاتحاد السوفياتي ، وقد سبق ان اتى المؤلف بذكره في مقالته عن «الصحيفة وقارئها» . « م » .

موروثة عن عهد العبودية ، والاذلال ، واحتقار الكرامة الانسانية لدى الاخرين ولدى الذات . ويجب ان نسأل فقهاء اللغة وعلماءها والمختصين في الشؤون الفولكلورية ان كانت توجد في الاقطار الاخرى جلافة منفلتة ، منفرة ، ومزعجة ، كالتي عندنا . وعلى حد علمي ، ليس ثمة مرادف لجلافتنا في الخارج . لقد كانت الجلافة لدى الطبقات الشعبية تعبر عن اليأس ، وعن الغضب ، وايضا، وقبل اي شيء اخر ، عن وضع عبودية لا امل فيه ولا مخرج منه. لكن هذه الجلافة كانت لدى الطبقات العليا ، في فم سيد مالك او مفتش عقاري ، تعبر عن التفوق الطبقي ، عن حق لا جدل حوله في استعباد البشر . يقولون عن الامثال انها تعبر عن الحكمة الشعبية ، لكنها تعبر ايضا عن الجهل،والافكار المسبقة والعبودية. فثمة مثل روسي قديم يقول « الكلمة النابية تنسى بسرعة»، وهذا المثل لا يعكس فقط العبودية ، وانما ايضا تقبلها السلبي . وثمة نمطان للجلافة ـ جلافة السادة والموظفين والبوليس ، وهي جلافة متخمة وبذيئة ، واخرى جائعة ويائسة ـ قد لونا الحياة الروسية بلونهما المنفر . وقد ورثتهما الثورة ، كما ورثت اشياء عديدة اخرى .

بيد ان الثورة هي قبل اي شيء اخر يقظة الشخصية الانسانية لدى طبقات كانت ، فيما مضى ، تفتقر اليها كليا . وعلى الرغم من قساوة اساليبها وشراستها الدموية ، فان الثورة هي قبل اي شيء يقظة الحس الانساني . فهي تسمح بالتقدم ، وبمنح قدر اكبر من الاهتمام للكرامة الذاتية ولكرامة الاخرين ، وبمساعدة الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة . فالثورة لن تكون ثورة ان لم تعمل ، بكل قواها ووسائلها ، على مساعدة المرأة المستلبة مثنى وثلاث ورباع على التقدم ذاتيا واجتماعيا . والثورة لن تكون ثورة ما لم تعر الاطفال بالغ الاهتمام : فهم المستقبل الذي باسمه تتم وتتحقق. فهل نستطيع ان نشيد ـ ولو على نحو مجزأ ومحدود ـ حياة جديدة قائمة على الاحترام المتبادل ، على احترام الذات، على

حق المرأة في المساواة ، على اهتمام حقيقي بالاطفال ، في جو يدوي فيه ويهدر وينفجر اسلوب السادة والعبيد والاجلاف ، هذا الاسلوب الذي لم يوفر قط لا الاشياء ولا الاشخاص ؟ ان الثقافة الروحية تحتاج الى مكافحة جلافة الاسلوب وفظاظته حاجة الثقافة المادية الى مكافحة القذارة والقمل .

وليس من السهل على الاخلاق القضاء على هذه الاباحية اللغوية لان جذورها ليست في الكلمة بحد ذاتها ، وانما في النفسية وفي نمط الحياة . لا ريب في ان محاولات مصنع « كومونة باريس » تستحق منا كل التشجيع ، لكن علينا ان نتمنى للقائمين عليها الصبر والمثابرة ، لان العادات النفسية التي تنتقل من جيل الى اخر ، والتي تتأثر بها اجواؤنا حتى اليوم ، ليست سهلة الاستئصال . فغالبا ما نعقد العزيمة على تحقيق التقدم باي ثمن كان ، لكننا نرهق انفسنا لنستسلم في نهاية المطاف تاركين الامور على ما كانت عليه من قبل .

نأمل ان تقابل مبادرة « كومونة باريس » بالدعم من قبل العمال ، ولا سيما من قبل الشيوعيين . وما يمكننا قوله هو ان الكلمات النابية توجه بشكل عام ( هنالك استثناءات طبعا ) الى المرأة والاولاد، وذلك لا فياوساط الجماهير المتخلفة فحسب وانما في صفوف الطليعة ، بل احيانا في صفوف « المسؤولين » . ولا يسعنا ان ننكر ان هذه الطريقة في التعبير ما تزال حية لدى اصحاب « المناصب العالية » بعد انقضاء ستة اعوام على ثورة اكتوبر . وثمة « شخصيات » تعتبر انه من واجبها ، عندما تكون خارج العاصمة او خارج المدينة ، التحدث باسلوب جلف ، لانها ترى فيه وسيلة اتصال بالطبقة الفلاحية ...

ان حياتنا متناقضة تماما ، على الصعيدين الاقتصادي والثقافي على حد سواء . ففي قلب البلاد ، غير بعيد عن موسكو ، تمتد مستنقعات شاسعة غير سالكة الدروب ، وعلى مقربة منها تنتصب مصانع تلفت الانتباه بسويتها التقنية الاوروبية او

الاميركية... تناقضات ومفارقات مماثلة نلمسها في عاداتنا، فالى جانب كيت كيتيتش (٢) الشاب الذي اجتاز الثورة وعرف المصادرة ، والمضاربة السرية والمضاربة الشرعية ، والذي حافظ بأمانة على جميع سمات طبقته ، نجد النموذج الامثل العامل الشيوعي الذي لا يعيش الا من اجل مصالح الطبقة العاملة، والمستعد دوما ، في اي لحظة وفي اي بلد ، لان يقاتل من اجل الثورة . بالاضافة الى هذه المفارقة الاجتماعية ـ الجلافة البليدة والمثالية الثورية ـ فاننا غالبا ما نلاحظ مفارقات نفسية عند الشخص الواحد ، وداخل الوجدان الواحد . ومثالنا على ذلك شيوعي اصيل، مخلص لمهمته، لا يعتبر النساء اكثر من «بابا» (٣) ( يا لها من كلمة فظة ) لا تستحق الحديث الجدي . او مقاتل قديم في كومونة باريس يطلق ، بصدد المسألة القومية ، رشقة شتائم جديرة باوغريوم ـ بورتشيف ، (٤) وكفيلة بان تجعل الناس تهرب من حوله . وهذا ناجم عن كون ميادين الوعي المختلفة لا تتحول وتتطور على نحو متواز وفي آن واحد . هنا ايضا نجد تركيبا خاصا ، فالنفسية تكون محافظة تماما ، اما بالنسبة الى الوعي فان العناصر الخاضعة لمقتضيات الحياة هي وحدها التي تتحول. فالتطور الاجتماعي والسياسي خلال العقود الاخيرة تم بايقاع جنوني ، مع قفزات وتقلبات لا سابق لها. لهذا السبب تعاظم شأن **الفوضى والفساد** عندنا الى هذا الحد . لكن لن نكون منصفين اذا ما توهمنا بان هاتين الآفتين لا تهيمنان الا على الانتاج وعلى جهاز

---

**(٢) كيت كيتيتش : اسم جماعي ظهر في مطلع القرن التاسع عشر وكان يشار به الى التاجر المستبد والمتميز بجلافته ومكره . «م» .**

**(٣) « بابا » : تسمية جماعية مهينة للمراة تضعها في مرتبة البهيمة . «م» .**

**(٤) اوغريوم بورتشيف : احدى شخصيات رواية سالتيكوف ـ شيدرين : «قصة مدينة » . وهو نموذج للمستبد الذي لا يعبر عن آرائه الا بهمهمات وزمجرات فظة . « م » .**

الدولة . كلا ، يجب ان نعترف بانهما تؤثران ايضا على العقليات حيث تمتزج آراء طليعية ورزينة ( في هذا المجال نستطيع ان نعطي دروسا لاوروبا ولاميركا ) مع طبائع وعادات وافكار موروثة مباشرة عن دوموستروج (٥) . ان تسوية الجبهة الايديولوجية وتمهيدها، اي تحليل سائر ميادين الوعي بواسطة النهج الماركسي، هي الصيغة العامة للتربية ولتربية الذات التي ينبغي تطبيقها على حزبنا في المرتبة الاولى ، ابتداء بالقادة . ومرة اخرى نعود فنقول ان هذه المهمة هي في غاية التعقيد ، ولن تحل بطريقة مدرسية ولا ادبية، لان تناقضات النفسية واضطراباتها ترسي جذورها البعيدة في فوضى نمط الحياة وفساده . فالوعي يتحدد في نهاية المطاف بالوجود. لكن الارتباط هنا ليس ميكانيكيا ولا آليا ، وانما متبادل. لذلك ينبغي مواجهة المشكلة من عدة جوانب ، بما فيها الجانب الذي اختاره عمال مصنع « كومونة باريس » .

فلنتمنَ لهم التوفيق !



ان النضال ضد الجلافة جزء من النضال من اجل صفاء اللغة ووضوحها وجمالها .

---

**(٥) « دوموستروج » : كتاب مصنف من القرن السادس عشر ، جمعت فيه القواعد الاساسية للحياة اليومية ، والقائمة على مبدأ الخضوع المطلق لرب الاسرة . «م» .**

# الفهرس

MOUYN

# هذا الكتاب

كثيراً ما تفهم الثورة على انها فن إبداع الأشياء الكبيرة . لكن في التاريخ لا تتواجد ابداً اشياء كبيرة من دون اشياء صغيرة . والاشياء الصغيرة ، أشياء الحياة اليومية ، هي المحك الأول للثورة الكبيرة ومقياس شموليتها ومعيار تأصلها في تربة الواقع .

وهذه النصوص التي كتبها تروتسكي عام ١٩٢٣ ، يوم كان مفوض الشعب للجيش والبحرية والشخصية الثانية بعد لينين في الحياة السياسية لروسيا السوفييتات ، هي من اعمق واجمل ما كتبه قط . وهي اذ تتناول قضايا السلوك الاجتماعي والعلاقات العائلية وتحرر المرأة والادمان على الكحول وتهذيب اللغة اليومية وطقوسية الولادة والزواج والوفاة ، وما الى ذلك من مشكلات نمط الحياة ، ترتقي بمفهوم الثورة الى مستوى ملحمي جديدة : فالاشياء الصغيرة في عصر كبير ، وبدمجها في عمل كبير ، تكف عن ان تكون اشياء صغيرة .

الثمن : ٤٠٠ ق. ل.
او ما يعادلها

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت